الفصل الخامس

الاتجاهات الاجتماعية والثورية

فى الحركة المهدية فى السودان

١٨٨١-١٨٨٥

زكى البحيرى

تولى محمد على حكم مصر فى العصر الحديث بعد ١٨٠٥ حيث حاول من خلال حكمه المركزى إقامة نهضة حديثة ، ولما تم له فتح السودان ١٨٢٠ حاول إرساء قواعد حكم حديثة هناك ، فشجع الأهالى على استغلال الأرض وقيام الزراعة ، وأرسل البعثات الكشفية إلى منابع النيل ، ولما جاء الخديو إسماعيل إلى الحكم ١٨٦٣ تطلع إلى جعل مناطق شرق السودان بساتين خضراء ، وأدخل فيها زراعة القطن والفواكه ، ودعا لاستخدام طرق الرى الحديثة ، وأرسل المزيد من المستكشفين إلى جنوب السودان وأوغندا .

والمؤسف أن الحكم التركى المصرى لأسرة محمد على فى السودان قد تسربت إليه – كما كان الحال فى مصر – عوامل الضعف والانحلال خاصة أنه كان أول محاولة لإدخال النظام والقانون فى مجتمع بسيط ينفر بطبيعته من القيود والأنظمة .

ومن المؤكد أن اتساع الدولة التركية المصرية فى السودان وشرق أفريقيا قد جعل حكم هذه المناطق الشاسعة صعبا ومكلفا ، خاصة إذا ما أخذنا فى اعتبارنا أن هذه المناطق لم تكن مواردها قادرة على تغطية نفقات إدارتها وتطورها .

ولقد أدى الفساد الإدارى ، واضطراب الأحوال المالية إلى استعداء مختلف طبقات المجتمع السودانى وفئاته خاصة بسبب منع تجارة العبيد بالعنف والقوة ، وفرض الضرائب الباهظة ، واحتكار الموارد الاقتصادية ، واستخدام العناصر الأوربية إضافة إلى وجود العنصر التركى على رأس إدارة شئون السودان ، ولقد استخدم هؤلاء الأوربيون الوسائل التعسفية فى تنفيذ قراراتهم مما

دفع السودانيين إلى إظهار عدم رضاهم ورفضهم للوضع القائم مما تبلور فـــى موقف واحد معبر هو الثورة المهدية بزعامة القائد السودانى محمـــد عبـد الله المهدى .

نشأة محمد أحمد المهدى والطريق إلى المهدية

ينتسب محمد أحمد المهدى إلى أسرة ترجع أصولها إلى الجزيرة العربيـة هاجرت أيام الحجاج بن يوسف الثقفى إلى مصر[١]. غير أنه ينتمى مباشرة إلـى بيت اشتهر أهله بالعلم والولاية ولا زالت أضرحتهم قائمة حتى الآن فى أسـوان وبلاد النوبة السفلى ، ولا يعلم أحد تحديداً الأوقات التى انتشـروا فيـها تجـاه الجنوب ، واختلفت الروايات فى تاريخ مولد المهدى ، فنعوم شقير يقول بأنه ولد بجزيرة "لبب" فى دنقلة سنة ١٨٤٢م ، ويذكر إبراهيم فوزى أن المهدى ولد عام ١٨٣٤م فى جزيرة الخناق ، وأرجح الآراء أنه ولد فى أغسطس ١٨٤٤ وهو ما يؤكده عبد الرحمن المهدى[٢].

وتوفى والد محمد أحمد وهو فى الخامسة كما فقد والدته فى سن الحاديـة عشرة[٣] ، وكان والد المهدى[٤] يعمل نجارا فى صناعة المراكب والســواقى ، وقد تزوج وأنجب خمسة أبناء منهم أنثى واحدة وأربعة ذكور ، اشـتغل ثلاثـة منهم مع والدهم ، أما رابعهم " محمد أحمد" فقد ذهب إلى الخلـوة (الكتـاب) وحفظ القرآن ودرس الفقه والتوحيد والتصوف فى خلوة الفقيه الهاشمى قـرب كررى شمال أم درمان ، ثم انتقل إلى خلوة الشيخ محمد الشنقيطى ، ثـم إلـى خلوة الشيخ الأمين الصويلح ، بمسجد ود عيسى ، ثم إلى خلوة الشيخ الأمـير ، وذهب بعد ذلك إلى الفقيه محمد الضكير (الخير) فى بربر ، وانخرط فيما بعد فى سلك الطريقة السمانية سنة ١٨٦٠ / ١٨٦١ وظل تلميذا لدى شـيخها نـور الدايم حتى ١٨٧٨[٥]

المهدى والطرق الصوفية فى السودان:

وإذا كان محمد أحمد المهدى فى نشأته رجلا من رجال الصوفية، فإن ذلـك يجرنا إلى الحديث عن التصوف وأثره عليه، ولقد عمت الطرق الصوفية البلدان الإسلامية خاصة فى شمال أفريقيا وبلاد السودان، وكان لهذه الطرق ورجالـها دور هام فى نشر الإسلام، وترسيخ أصوله وإرساء مفاهيمه، ومن أهم الطـرق الصوفية التى انتشرت فى أفريقيا، القادرية، والسمانية، والتيجانية، والمجذوبيـة، والإدريسية، والأحمدية، والسنوسية، والمرغنية، والإسماعيلية... إلخ، ولعبـت

القادرية والشاذلية دوراً كبيراً فى حياة الأمة السودانية فى عصر دولة "الفونج" ووجد الناس فى التصوف وسيلة للقضاء على الاختلافات القبلية أول الأمر، ولما تم الفتح المصرى للسودان ١٩٢٠ أفسح السبيل أمام انتشار الطرق الصوفية، فازداد نشاطها خاصة خلال القرن التاسع عشر وما بعده[٦] غير أن الطرق الصوفية لم تؤد إلى إلغاء الاختلافات القبلية بل أنها أدت إلى خلق صراعات دينية بين الطرق الصوفية ذاتها تلك الصراعات التى تحولت فيما بعد إلى صراع سياسى.

والتصوف فى الواقع ما هو إلا ظاهرة روحانية عملت على إنتاج علاقات اجتماعية معينة فى ظروف تاريخية معينة ، وقد تواجدت ظاهرة التصوف والزهد منذ القرن الأول الهجرى ، وكانت تعنى فى الحقيقة انقطاعا عن ممارسة كل نشاط اجتماعى ، والتفرغ لممارسة الشعائر الدينية فقط ، وقهر النفس وحرمانها من كل مشتهيات الحياة ، واستشعار للحزن والقلق الدائم ، أى مجاهدة النفس ، وكان رجال الصوفية يصلون إلى المعرفة عن طريق الكشف أو المشاهدة أو الإشراف أو الحدس النفسانى[٧] إن ذلك يوضح أن هناك هوة كبيرة بين الإسلام الرسمى للإدارة المصرية فى ذلك الوقت وبين الإسلام ذات الطابع المحلى الصوفى[٨].

ويرى حسين مروة أن الفكر الصوفى قد حمل وحده – فى تاريخ الصراع الاجتماعى داخل المجتمع العربى الإسلامى – علاقة التناقض والرفض والتمرد على الأيديولوجية الرسمية اللاهوتية.

ويرى مروة أيضاً أن انتقال الصوفية للسودان كان له خصوصيته ، فرجال الصوفية هم الذين قادوا حركة التبشير المنظم فى السلطنة الزرقاء وسهول البلاد ، حيث كانوا يقيمون الخلاوى التى لا تنطفئ نارها ، ويطعمون الجائع ، ويعطون المحروم وقد وجد الناس فى كنف الصوفى ودفء ردائه ملاذا من عواصف الدهر ، وتقلبات الحياة وكتاب " الطبقات ، فى أصول الأولياء والصالحين والأمراء والشعراء فى السودان " لمحمد ود ضيف الله يعكس تحيز رجال الدين وعامة أهل السودان للمتصوفة على حساب علماء السنة.[٩]

ولقد انتشرت القصص والروايات عن كرامات أولياء المتصوفة الذين احتلوا مكانا رفيعا فى سلم الحياة الاجتماعية خاصة فى بلاط الفونج ، وعندما جاء الحكم التركى – المصرى وأخذ فى إخضاع المؤسسة الصوفية لنظام الحكم

المركزى بأسلوبه الفوقى الضيق ، ابتعد رجال الصوفية عن المسرح، وحل محلهم علماء الشريعة ولكن الأخيرين لم يستطيعوا أداء مهمة الصوفى ، ولذلك احتفظت المؤسسة الصوفية بمكانتها فى نفوس الناس[١٠] ، وفى هذا الجو المصطرع والمشبع بالمعتقدات الروحانية عاش محمد أحمد المهدى متأثرا بتناقضات عصره ، حيث انتظم فى سلك المتصوفة لأنه لم يكن هناك سبيل للتعلم والدراسة سوى هذا السبيل وقتها ، إلا أنه انتقل من مجرد صوفى ينشر الخلاص لنفسه بين أروقة الصوفية وخلاويها إلى صوفى ينشد الخلاص للناس من براثن الحكم التركى – المصرى ، فأصبح فى مسلكه هذا تجسيدا للوعى الاجتماعى فى هذه المرحلة[١١] ، ومن المؤكد أنه لم يكن فى صوفيته شخصا عاديا ، بل كان شيخ طريقة وقطب من أقطاب الصوفية بعد فترة ، وعالم ملئ بالخوارق والكرامات ، ورؤية الله ، والأنبياء[١٢] ، وهى حالة نقلته إلى الإحساس بأنه المهدى المنتظر .

والواقع أن أول ظهور لفكرة المهدية أى مجئ المهدى المنتظر الذى يأتى لهداية الناس للخير كان فى بداية عهد الخلافة الأموية ، ولقد آمن أهل السنة بالمهدية وظهورها خاصة عند الأزمات ، ولكنها كفكرة لم تلتصق بأصول معتقداتهم ، وكان المختار الثقفى أول من دعا بإمامة محمد بن على بن أبى طالب ، أما المهدى عند الشيعة فهو الإمام المختفى الذى يؤمنون بتنزهه عن الخطأ ، والذى سيعود ليحقق آمال الشيعة ، وينشر العدل بين الناس كافة ، وهم يعتقدون أيضا أن المهدى يعنى الفرد الملهم الذى يوجهه إلهام إلهى معين ، ويملك أسرار عميقة ، ودوره يتمثل فى إعادة الحكم الصالح ، ولقد كان المهدى السودانى ينطبق عليه هذا المعنى ، ولكنه لم يدع أنه المهدى المختفى ، بل هو المهدى الملهم.[١٣]

ووجدت المهدية طريقها إلى الصوفية التى روجت لها فى سعيها لتغيير واقع الحال ، ولحاجتها إلى سلطة دنيوية بجانب القوى الروحية ، فأعطت فكرة المهدى للصوفية –التى غلفت الأساطير جل تاريخها ومسحتها بمسحة الخرافة والغيبية – ذراعا دنيويا ترفع به راية العدالة الاجتماعية فى وجه الظلم طالما أن الأمل الذى تسعى المهدية إلى تحقيقه يمكن إقامته فى هذه الدنيا بالعمل والتحرك.[١٤]

وطبيعى أن الظواهر السلبية سياسيا واجتماعيا لها انعكاسها المباشر على طرق التفكير والفلسفة ، والأيديولوجية الثورية بالذات ، هذا الانعكاس يحمل

معه صور اليأس السياسى ، والتناقض الطبقى ، والتطلع إلى تغيير الواقع ، وفى إطار الفكر الصوفى التقليدى لم يستطع اليأس السياسى أن يجد طريقه للتحول إلى فكر ثورى إيجابى فتحول إلى ثورة عدمية سلبية ترفض الواقع ، والعالم المادى منه بالذات ، واتجهت إلى الزهد والشكل الصوفى.

وخلال العصور الوسطى الإسلامية وحتى القرن التاسع عشر كانت كل ثورة أو حركة اجتماعية أو سياسية فى بلدان العالم الإسلامى تتخذ إطارا دينيا، وعليه كان على كل حركة تريد أن تحدث أثرها فى الجماهير المحشوة بالغذاء الدينى وحده أن تقدم مصالحها لهذه الجماهير فى هذا الإطار ، لذلك لما رأى السودانيون وفى مقدمتهم المهدى أن الحكم التركى المصرى الذى يسير إدارته الأوربيون والترك قاسٍ لا يراعى مصلحة العباد استوجبوا مواجهته ، وقد نجحت هذه المواجهة عندما أخذت شكل ثورة دينية ، ضد الأجانب أعداء الدين والوطن ، وكان محمد أحمد المهدى لديه إحساس بأنه المخلص الذى أتى لهداية الناس كافة وقهر أعداء الدين ، وخلق مجتمع مهدوى خير يتسع لكل المسلمين[١٥]، والمهدية بهذا المعنى وليدة الجمع بين ظروف وأفكار وطموحات مجتمعية أكثر منها معتقدات دينية.[١٦]

محمد أحمد بين الصوفية والمهدية:

كيف كانت مسيرة محمد أحمد من الصوفية إلى المهدية ؟ لقد دخل الرجل الطريقة السمانية كما سبق أن نوهنا على يد محمد شريف نور الدايم ، والطريقة السمانية ذاتها دخلت السودان عام ١٨٠٠ حيث أخذها الشيخ أحمد الطيب من القطب محمد بن عبد الكريم السمان ، وقد اعتمدت هذه الطريقة على طرق صوفية أخرى هى القادرية والخلواتية والنقشبندية ، وتقوم على الدعائم الستة التى تقوم عليها طرائق السادة الصوفية عموما وهى :التوبة ، العزلة، الزهد ، التقوى ، القناعة ، التسليم.

وقد خلف الشيخ محمد شريف نور الدايم والده الشيخ أحمد الطيب فى مشيخة الطريقة[١٧] وذاعت شهرته فى " أم مرح " وكان له مريدون من مختلف أنحاء البلاد ، وسمع بأمره محمد أحمد فذهب إليه وسأله أن يكون من تلاميذه ، فأجابه الشيخ محمد شريف إلى طلبه ، فأقام المهدى عنده سبع سنوات مظهرا له الطاعة والولاء ، ومؤديا له من الخدمات ما لا يرضاه الخدم والعبيد ، وفى نهاية المدة أجازه الشيخ على الطريقة السمانية ، ورحل بعدها محمد أحمد إلى

الخرطوم فأنشأ فيها مدرسته ما بين ١٨٦٣ – ١٨٦٨ صار بعدها فقيها ، ثم انتقل وأخوته إلى الجزيرة أبا حوالى سنة ١٨٧٠م على بعد ما يقرب من ٢٥٠ ميلا جنوب الخرطوم فى النيل الأبيض ، وكان هدفه الانقطاع للعبادة ، وهناك اشتهر بالصلاح والتقوى ، والتف حوله زعماء قبائل دغيم ، وكنانة منهم على ود حلو الذى صار واحدا من خلفائه فيما بعد.(١٨)

وقد انتقل الشيخ محمد شريف أستاذ المهدى إلى " عرديب " التى تقع على النيل الأبيض بالقرب من جزيرة أبا لكثرة خيراتها وقد وصفها محمد أحمد المهدى له سنة ١٨٧٢م ، وعاش الاثنان فى وئام تام ، تحف بهما السعادة والمحبة والاحترام.(١٩)

وترجع بذور الدعوة المهدية إلى وقت وجود محمد أحمد مع الشيخ محمد شريف حين اتجه وجهة سلفية توحيدية تبعد به عن الجوانب الاجتماعية للطرق الصوفية وما يرتبط بها من الفوائد المادية التى تعود على القائمين بها على حساب المريدين – ولقد اعترض " محمد أحمد" على مشايخه السابقين ومنهم محمد الخير بسبب تقاضيه مرتبا من الحكومة كان مخصصا لأمثاله من رجال الدين بحجة أن مال الحكومة قد تم جمعه بطريقة لا يرضاها الدين – وهنا ظهرت الأسباب الفعلية للصراع بينه وبين أستاذه محمد شريف ، وأساس ذلك دعوته للاستقامة والغيرة الدينية ، وعدم ممالئة السلطة على حساب الحق.(٢٠)

على أن الخلاف المعلن بين المهدى وأستاذه محمد نور الدايم ، يبدأ سنة ١٨٧٨، وفى أصول هذا الخلاف يورد نعوم شقير سببين :أولهما : أن محمد أحمد قد بلغ من الغرور حدا عظيما ١٨٧٨ حينما رأى إقبال الناس عليه – على حد قول محمد شريف نفسه – وادعى أنه المهدى المنتظر ، وعرض على أستاذه أن يجعله وزيرا ومستشارا له ، وعقد الأستاذ محمد شريف مجلسا بجزيرة أبا من القضاة وأشراف المدينة ، ونهى المهدى عن تلك الدعوة ، وعرض عليه نصف ما يملك مقابل تنازله عن فكرته ، ولكن المهدى خرج من المجلس غاضبا ، ولم يرد على ذلك القول.(٢١)

والسبب أو القصة الثانية التى يرويها نعوم شقير ، أن الشيخ محمد شريف قد حسد المهدى على ما كان يتمتع به من احترام فى "أبا" وذلك بعد أن أصبح مجاورا له فى "عرديب" وخاف الأستاذ أن تخمد شهرته ويقل دخله ، فحرض بعض المشايخ على مهاجمة المهدى وأتباعه ، فوقعت مشاجرة بين أتباع الشيخ

رضوان وأتباع المهدى حيث أصاب أتباع الشيخ رضوان المهدى ورجاله بـأذى جسيم ، فقام ناظر " الكوة " بسجن أتباع الشيخ رضوان فتدخل الشـــيخ محمـد شريف لفك سجنهم ، ولقد أوغرت هذه الحادثة صدر محمد أحمد على أســـتاذه الذى كان يجله[٢٢] ، وتفاقم الأمر وزادت القطيعة بين الأستاذ ومحمد أحمد فـــى مناسبة ختان أولاد أستاذه حين استنكر المهدى الرقص والغناء الذى رآه فى بيت شيخه فى تلك المناسبة ، وقال أنه لا يجوز لأى إنسان فعل ذلك لأنه خارج عـن الدين ، وأعلن موقفه هذا أمام الناس وهو سلوك يتفق مع طبيعة المهدى ونشـأته ،فقد منع الرجال والنساء من إعلان الابتهاج به فى ليلة زواجـــه ، وبلـــغ هـــذا الموقف أستاذه فطلب منه تبرير أقواله فقدم الأخير الاعتذار له أمـــام أتباعـــه ، وطلب الصفح عنه ، ولكن محمد شريف أخذ يلعنه وينسب إليه الخيانة والخروج ،وصاح فى وجهه " اغرب عنى ، وصدق من قال : أن الدنقلاوى شيطان مجلد بجلد إنسان " ولم تنجح محاولات المهدى لاستعادة علاقته الطيبة بأستاذه ، الـذى قرر محو اسمه من قائمة أتباع الطريقة.[٢٣]

وأكد الشيخ نور الدايم فى حديثه مع نعوم شقير عـــام ١٨٩٨ أن ســبب العداء بينه وبين محمد أحمد يرجع إلى أنه قد نهاه عن دعوته " المهدية " ولكنـــه لم يعد إلى صوابه ، وأنكر أنصار المهدى هذا الرأى – ولهم الحق فى ذلـــك – وقالوا : أن أصل العداء بينهما هو انصراف الناس عن محمد شريف وميلهم إلى محمد أحمد المهدى بالعقيدة والأتباع[٢٤] وعليه فإن القول بأن ســـبب الخـــلاف بينهما هو الرقص والغناء فى حفل ختان أولاد محمد شريف ليـــس هـــو العلـــة الفعلية للخلاف – كما تصور البعض – إنما كان مظهرا من مظاهره أو عـــاملا من عوامل تأججه .

وخروجا من هذا الموقف توجه محمد أحمد إلـــى الشـــيخ "القرشـــى ود الزيـــن" قرب المسلمية بالنيل الأزرق ، وكان من مشـــايخ الطريقـــة الســـمانية أخذها عن الشيخ أحمد الطيب مباشرة ، وكان القرشى منافســـا للشـــيخ محمـــد شريف فاحتفى وتلاميذه بمحمد أحمد وفى هذا الوقت أعلـــن محمـــد شـــريف رضاءه عن المهدى على شريطة أن يترك فكرة المهدية لكن محمد أحمد رفـض ذلك ، ومات الشيخ القرشى بعد فترة قصيرة ، فأصبح المهدى هو صاحب الأمر فى الطريقة بعده ، وتعلق به تلاميذ الشيخ القرشى ، وذاع صيتـــه فـــى أنحـــاء البلاد.[٢٥]

وخلال هذا الوقت كان السودانيون – كغيرهم من المســـلمين الأفارقـــة –

نتيجة للجو العام وكثرة الفساد وسوء الإدارة التركية المصرية وتغلغل الأجانب في حكومة السودان ، وتطلع السودانيين أنفسهم إلى مخرج من سوء الأحوال قد سمعوا عن قرب ظهور " المهدى " الذى يصلح الله به أمر الأمة الإسلامية، ويعيد للدين الحنيف القوة والعزة ، وقد بشرت حركة عثمان بن فودى فى بلاد الهوسا والفولانى بغرب إفريقيا بقرب ظهور المهدى المنتظر بالمشرق ، وكتب "محمد بللو" فى كتابه " إنفاق الميسور " أن والده عثمان بن فودى قد أخبره عن قرب ظهور المهدى ونصحه باتباعه حين الظهور.(٢٦)

وخلال هذا الوقت من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شاهدت البلدان الإسلامية ودولة الخلافة العثمانية حالة من الضعف خاصة مع موجة الاستعمار الأوربى ، ولقد أدى هذا الوضع إلى ظهور الكثير من الحركات والثورات الدينية والإصلاحية منها الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية ما بين ١٧٠٣ وحتى ١٧٩١ . وحركة مهدى الصومال ، وتبوتيب فى الكنغو ، والحركة السنوسية التى قادها محمد بن على السنوسى ١٧٨٧ – ١٨٥٩ فى برقة والتى كان ظهورها رد فعل للأزمة الروحية والاجتماعية فى شمال إفريقيا ، وكان هدف الحركة استعادة حالة الصفاء الأولى للإسلام وتحقيق تماسك الدول الإسلامية فى مواجهة الاستعمار الأوربى(٢٧).

كذلك قامت حركة إصلاحية فى بلاد الهوسا والسودان الأوسط خاصة فى نيجيريا تزعمها الشيخ "عثمان بن فودى" وقد أشرنا إليها، حيث نادى لتصحيح العقائد الإسلامية وهدم البدع، والتصدى للفساد، والتدخل الخارجى(٢٨).

ولقد تعرض الشيخ عثمان لظهور المهدى وعلامات خروجه ، ومن أين يخرج؟ ولكن لم يعين وقت خروجه بالضبط ، إلا أنه أشار إلى قرب هذا الوقت، وقال بأنه سيكون هدى للعالمين بعد أن تمتلئ الأرض جورا وظلما.(٢٩)

وجدير بالذكر أن الاتجاهات السلفية كانت جزءا هاما فى تكوين فكر المهدى ولا يستبعد أن هذه الاتجاهات قد وصلت إليه وأثرت فيه – إضافة إلى استعداده الشخصي للأفكار السلفية – عن طريق الحركة السنوسية التى انتشرت زواياها فى غرب السودان ، كما أنه من المحتمل أن يكون قد تأثر بالأفكار السلفية فى الحركة الوهابية عن طريق الحجاج الذين كانوا يزورون الجزيرة العربية أو عن طريق طلاب العلم الذين كانوا يدرسون بالأزهر بالقاهرة ، ثم ينقلون معهم كل الأفكار المطروحة فى العالم الإسلامى.(٣٠)

وخلال الفترة الأخيرة للحكم المصرى التركى فى السودان وبسبب تردى الأحوال اجتماعيا وسياسيا " صار أغلب الناس من رجال ونساء يقولون: ليس لنا مهدى ما ، وقالوا هذا أوان نزول المهدى " وأصبح معظم أفراد المجتمع السودانى العربى المسلم ، خاصة فى الغرب (كردفان ، ودار فور) ينتظرون ظهور المهدى أو أى قائد يتصدى للظلم ويزيل إدارة الترك الطاغية[٣١] فى السودان قبل ظهور محمد أحمد .

والواقع أنه قد ظهرت بعض الحركات الدينية التى ادعت المهدية قبل محمد أحمد، ولكنها لم تجد قوة لانتشارها خاصة فى غرب البلاد ، وحول فكرة المهدية جرت الأقوال والتصورات ، ويذكر الزبير باشا أن عبد الله التعايشى – خليفة محمد أحمد فيما بعد – كان قد اتصل به وقال له: إنك المهدى المنتظر فرده الزبير عن ذلك ، كما قال الشيخ محمد شريف نور الدايم – أستاذ المهدى السابق – أن التعايشى جاءه قادما من الغرب وفاتحه فى موضوع المهدية قائلا : له بأنك المهدى المنتظر فطرده ، وكان التعايشى رجلا قوى الشخصية ، وكان طموحه لا يقف عند حد ، وما حال دون بلوغه هذا الطموح مباشرة سوى نشأته المتواضعة وسمعته الرديئة ، وقد وجد التعايشى فى محمد أحمد أمله الأخير وفرصته السانحة فى أن يكون هو مساعد المهدى المنتظر ، ودعم كل ذلك شعور التعايشى بما شعر به السودانيون من سخط وثورة ، ومن تطلع إلى منقذ يخلصهم مما هم فيه من مآس دامية ، ومعاملة سيئة ، فذهب إلى محمد أحمد وزكى فى نفسه الإحساس والشعور – وكان المهدى مؤهلا لذلك – بأنه المهدى أو المنقذ الذى تنتظره الأمة[٣٢].

محمد أحمد يعلن أنه المهدى المنتظر:

وكان من الصعوبة على محمد أحمد المهدى إعلان مهديته أول الأمر ، فكل ما يعرفه الناس عنه أنه صالح وتقى ومن أولياء الله ، فمن يجرؤ على إدعاء هذا المقام ؟ وخلال هذا الوقت مات الشيخ القرشى ، وكان من كلامه قبل أن يموت أن من يختن أولادى ويبنى قبة على ضريحى سيكون هو المهدى المنتظر ، فالتقط محمد أحمد بإحساسه هذا القول وشرع فور موت شيخه فى بناء القبة ، وبينما هو على هذا الحال إذ وفد عليه رجل فارع القامة، وما كاد يقع نظر الرجل على محمد أحمد حتى سقط مغشيا عليه ، ولم يفق من غشيته إلا بعد حوالى ساعة ، فلما أفاق عاد فنظر إلى محمد أحمد ، وتقدم لمصافحته فأغمى عليه مرة ثانية!! ثم أفاق وتقدم إلى محمد أحمد حبوا على قدميه على

الأرض فأخذ يده وشرع فى تقبيلها وهو يرتعد ويبكى ، فقال له محمد أحمد من أنت يا رجل وما شأنك ؟ فرد عليه قائلا : "ياسيدى أنا عبد الله بن محمد ود توشكين ، من قبيلة التعايشة بغرب السودان قد سمعت بصلاحك فجئت لآخذ الطريقة عنك ، وكان أبى رجلاً صالحاً من أهل الكشف، وقد قال لى قبل وفاته: إنك ستقابل المهدى وتكون وزيره ، وقد أخبرنى بعلامات المهدى وصفاته ، فلما وقع نظرى عليك رأيت فيك العلامات التى أخبرنى والدى لها ، فابتهج قلبى برؤية مهدى الله، وخليفة رسوله ، ومن وقع السرور على أصابنى ما رأيته " وصادف ذلك بالطبع هوى فى نفس محمد أحمد ، وكان مطابقا لما ذكره الشيخ القرشى ، وكان لهذا الإيحاء – أو التمثيلية على حد قول عبد الودود شلبى – التى قام بها التعايشى دور خطير فى إعلان محمد أحمد لمهديته.(٣٣)

ولما أصبح لدى محمد أحمد قناعة بأنه المهدى المنتظر – قناعة تولدت من تكوينه ومشاعره ومن الظروف الصعبة التى تحيط به فى بلاده السودان ، وفى أقطار العالم الإسلامى ، ولما تأكدت قناعته بأنه المهدى بأثر إيحاءات المشايخ والمحبين – الذى أتى لخلاص الناس مما هم فيه من الكرب والبلاء ، وليدعوهم إلى إتباع أصول الإسلام ، قام أول الأمر بالطواف فى أنحاء كردفان ودارفور ، وانتقل من مرحلة كتمان الدعوة إلى مرحلة الإبلاغ بها إلى المشايخ ورجال القبائل فى حوالى يونيه ١٨٨١ حيث شن حربا فكرية ضد الحكومة ، ودعا الناس إلى الانصراف عن الملذات ، وإلى الجهاد ضد إدارة الترك الظالمة.(٣٤)

ولقد أصبحت دعوة المهدى علنية يوم أبرق لحكمدار السودان من جزيرة أبا بأنه المهدى المنتظر ، وأعلن على الملأ أفكاره وكان ذلك فى شهر أغسطس ١٨٨١(٣٥) ، وفى ذلك يقول المهدى " كتبت إلى حكمدارية الخرطوم وأنا بأبا بدعايتى إلى الحق وبأن مهديتى من الله ورسوله"(٣٦) ولم يكن من السهل إعلان محمد أحمد عن مهديته – فالسنوسى هُدد بالقتل عندما أعلن آراءه ، ومحمد عبده اتهم بالزندقة حين دافع عن فكرة العودة للقرآن والسنة – ولقد أرسلت الحكومة إلى المهدى فى أبا قوة عسكرية تمكن من دحرها ، ثم هاجر وأتباعه من المشايخ والأهل والمحبين إلى جبل " قدير " فى جبال النوبة، وهناك وقعت معركة بينه وبين مدير فاشودة حيث حقق المهدى عليه أيضا نصرا كبيرا ، وغنم منه عددا كبيرا من البنادق النارية.(٣٧)

وسعى المهدى لكسب الأنصار فى صراعه ضد حكومة الخرطوم الفاسدة،

وضد رجال الدين المنضويين تحت جناحها، ولذلك سعى إلى تجميع المجاهدين وبدأ يرسل بمنشوراته إلى الفقهاء والقضاة والأعيان والمشايخ طالبا منهم الإيمان بدعوته والانضمام إليه، ولقد جاء في منشوره الأول إليهم قوله "هجمت على الخلافة الكبرى من الله ورسوله، وأعلمنى النبى(ص) بأنى المهدى المنتظر"[٣٨] وفى موضع آخر من المنشور يقول: "وحيث أن الأمر لله والمهدية المنتظرة التى أرادها الله واختارها للعبد الفقير محمد أحمد... فيجب التسليم والانقياد لأمر الله ورسوله وبأن "من شك فى مهديته فقد كفر بالله ورسوله"[٣٩] ويقول فى منشور آخر له أرسله إلى من عاهدوه على نصرته من أهل السودان "جاءنى النبى(ص) فى اليقظة ومعه الخلفاء الراشدون والأقطاب والخضر عليه السلام، وأمسك بيدى(ص)، وأجلسنى على كرسيه وقال لى أنت المهدى المنتظر"[٤٠].

وفى خطاب للمهدى إلى الشيخ محمد الطيب البصير يقول له: "ومن البشاير التى حصلت لنا بعدك: أنه حصلت لنا حضرة نبوية حاضر عليها الفقيه عيسى (يبدو أنه من كبار أتباع المهدى) فيأتى النبى (ص) ويجلس معى ويقول للأخ المذكور: "شيخك هو المهدى فيقول: إنى مؤمن بذلك، فيقول له (ص) من لم يصدق بمهديته فقد كفر بالله"[٤١].

وفى مرحلة تالية بدأ المهدى يدعو المشايخ والمؤيدين له بالهجرة معه أو اللحاق به فى جبل " قدير " فى جبال النوبة ، حيث اختاره المهدى كمكان للهجرة بدعوته بعيدا عن حكومة الخرطوم وللاستعداد فيه لخوض غمار الحروب ضد حكومة الترك ومن والاها ، ومنشورات المهدى مليئة بتعليماته بهذا الخصوص[٤٢] ، ولم تكن دعوة المهدى لهجرة المسلمين من أهل السودان فقط بل ولكبار رجال الدين من خارج السودان أيضا ،فأرسل برسالة إلى حيان بن سعيد حفيد عثمان دان فودى يدعوه فيها إلى تصديق مهديته والهجرة إليه ، ولما كان الشيخ عثمان قد أشار بقرب ظهور المهدى ،وهو أمر معلوم لحيان فقد رد برسالة منه إلى محمد المهدى جاء فيها : " وإن متنا على بيعتك فلله الحمد والشكر على هذه النعمة التى لا نعمة فوقها ، وقد رأينا الكرامات وصدقنا ، ووقفنا على الآيات والأحاديث والكرامات وصدقنا ... وقبلنا النصيحة .... وها نحن ياسيدى مهاجرين إلى الله ورسوله وإليك ..."[٤٣] كذلك أرسل المهدى بخطاب إلى محمد المهدى السنوسى زعيم الدعوة السنوسية فى برقه قال له فيه : "لازال التأييد يزداد ... (يقصد زيادة المؤمنين بمهديته) حتى جاءتنا الأخبار فيك من النبى(ص) أنك من الوزراء لى ، ثم لا زلنا ننتظرك ... ثم حصلت

حضرة عظيمة عين النبى (ص) فيها خلفا لأصحابه من أصحابى ، فأجلس أحد أصحابى على كرسى أبى بكر الصديق ، وآخر على كرسى عثمان، وأوقف كرسى عثمان فقال هذا الكرسى لابن السنوسى إلى أن يأتيكم ... وأجلس أحد أصحابى على كرسى على رضوان الله عليهم أجمعين"[٤٤] ، ورغم ذلك فإن السنوسى لم يصبح وزيرا من وزراء المهدى ، ولا هاجر إليه كما كان يتمنى .

وكتب المهدى إلى أهل موريتانيا ، وسلطان مالى ، وسلطان " وداى " (جزء من بلاد تشاد) ولذلك انتشرت دعوته فى غرب إفريقيا ، بل وذاع صيته فى بعض البلاد العربية خلال القرن التاسع عشر.[٤٥]

وقد عبر المهدى عن تصميمه أن يسيطر على جميع أنحاء السودان والبلدان الإسلامية العربية المجاورة ، وبدا ذلك بكل وضوح فى خطابه إلى فرج الله بك قائد القوات المصرية التركية فى أم درمان، حيث يقول له :" وإنى موعود بملك جميع الأرض " وذكر أن رسول الله (ص) بشره فى الحضرة النبوية فقال : " وقال لى كما صليت فى الأبيض تصلى فى الخرطوم ثم تصلى فى مسجد بربر ثم تصلى ببيت الله الحرام ، ثم تصلى فى مسجد يثرب ، ثم تصلى فى مسجد مصر ثم تصلى ببيت المقدس ثم تصلى فى مسجد العراق ثم تصلى فى مسجد الكوفة اللهم اجعلنا من المصلين فى هذه المساجد واجعلنا بعد ذلك من الشهداء ... آمين[٤٦]

المنابع الفكرية للثورة المهدية:

ما الأصول الفلسفية والفكرية للمهدية؟ لقد ذهب المتصوفة إلى القول بأنه لما انتهت النبوة، وكان الأنبياء أوتاد الأرض "أخلف الله مكانهم أربعين رجلا من أمة محمد(ص) يقال لهم الأبدال لا يموت الرجل منهم حتى يخلف الله مكانه رجلا آخر، وهؤلاء يسقى بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء"[٤٧].

وارتبطت فكرة المهدى بفكرة عودة نبى الله عيسى بن مريم آخر الزمان بعد ظهور المهدى فيقتل الدجال أو يشترك معه المهدى فى قتله ، حيث ستنتهى بذلك صفحة الظلم والشر لكى يعم الخير ، وتنتهى الحياة على هذه الصورة السعيدة.[٤٨]

ولما أعلن محمد أحمد مهديته دلل هو وأنصاره عن اقتناعهم بفكرة المهدية كما ظهرت عند ابن عربى ، وعبد الوهاب الشعرانى ، وأحمد بن إدريس ، وشهاب الدين الهيتمى، ومحمد المغربى والوردى وشهاب الدين

القليوبى مما يدل على أن مؤلفات هؤلاء عن المهدى المنتظر كانت منتشرة فى السودان ، ومعروفة ، وقد ذكر الحسن بن سعد العبادى بعض المصادر عن المهدية ، ويفيدنا المهدى نفسه أن شيخه محمد شريف نور الدايم كان يحدثهم عن كرامات المهدى المنتظر ومقامه.(٤٩)

ولقد تطورت الفلسفة الصوفية عند السهروردى إلى سلسلة من الوسائط فى مفهومه الإشراقى ووحدات هذه السلسلة الإشراقية متعددة كوسائط بين السماء والأرض، وهى فكرة طوباوية للعالم كما كان يحكم به المفكرون الثوريون فى ذلك العصر، وهى الصورة الأكثر "نورانية" التى تتحدى "ظلمانية" السلطات، وبذلك كان "النور" و"الظلام" فى الفلسفة الإشراقية يمثلان صورة تجريدية لعالمين متقابلين أحدهما إشراقى روحانى، وثانيهما واقعى اجتماعى يتصف بالجور والقهر، ويرى حسين مروة أن هذا هو معنى الرفض والتحدى فى الفكر الصوفى الإشراقى، وهو السر وراء عملية مقتل السهروردى بعد محاكمة فقهية "ثورية دراماتيكية أخفى بها السلطان وجهه بقناع الفقيه".

ووصلت الفلسفة على يد ابن عربى إلى مفهوم وحدة الوجود مما كان حلا لمشكلة التناقض الذى أوقع جماعة الصوفية فى مأزق يضعهم خارج الإسلام، بل وخارج التجربة الصوفية نفسها، فإن الإصرار على جمع النقيضين – الوحدة المطلقة للذات الإلهية والاتصال الصوفى بالذات الإلهية فى وقت واحد – هو الإصرار الذى حطم نفسه على صخرة المحال فلا هو أبقى على التوحيد ، ولا هو انتفع بثورية الخروج على أيديولوجية التوحيد ، فقام ابن عربى بصياغة مفهوم التوحيد فى شكل نظرية عن وحدة الوجود ليقول " أنه لا وجود حقيقى سوى وجود واحد"(٥٠).

وعلى ذلك فإن ابن عربى يرى أن التصوف هو الاسترسال مع الله تعالى، فهو عيش مع الله وبالله، وهو حفظ الأوقات وإسقاط للتدبير، وخوف من الله، ورجاء فى الله، وهو سلب لأوصاف النفس المذمومة وتحلية لها بالأوصاف المحمودة، وهو بعد كل ذلك تجريد للتوحيد فلا يشوب القلب خاطر شيطانى فيفسده، ولا هوى فيظلمه، وهو كشف عن الخواطر، وبحث عن كل ما يخطر على سر الصوفى، فيسترسل مع ما هو حق ويتجنب ما هو باطل"(٥١).

ولقد اعتقد ابن عربى فى قدوم المهدى فى صورة قطب صوفى كبير وتصور نظامه فى صورة دولة مثالية قوامها الأولياء والصالحون، وهو يسمى

المهدى بخاتم الأولياء، وقد أخذ عنه مهدى السودان كثيرا وسار على المنوال الذى تصوره ويمكننا أن نعتبر الصورة المجملة لمهدية محمد أحمد امتداد للمهدية التى تخيلها ابن عربى[٥٢].

وتأثر ابن عربى بالمذاهب الشيعية ونقل آراءها عن المهدية ، وصيغها الصوفية ، وقد وجدت هذه الآراء فى عقول المتصوفة أرضا خصبة ، وأثرت كثيرا فى اتجاهاتهم الفكرية وانعكس ذلك على فكر محمد أحمد كما أشرنا وكانت مؤلفات ابن عربى من أكثر الكتب رواجا ، وكان كتاب " الفتوحات المكية "من أشد الكتب تأثيرا ، وقد ذكر ابن عربى فى الجزء الثالث منه" أن المهدى لا يخطئ ... لأنه يقفو أمر رسول الله (ص) والمهدى يتعين عليه علم ما يكون بطريقة التنزيل الإلهى ، فلا يحكم المهدى إلا بما يلقى إليه الملك من عند الله ليسدده ، فهو بذلك معصوم : ومنها أن الإمام عند الشيعة له صلة بالله من جنس التى بين الأنبياء والرسل "[٥٣] وذكر الشيخ أحمد بن إدريس أن أجيالا عديدة أنكرت ظهور المهدى ، ولكن أكد ابن عربى ضرورة ظهور المهدى فى مكان وزمان وصورة وظروف لا يعلمها إلا الله.

ولقد دافع الصوفى الكبير عبد الوهاب الشعرانى عن ابن عربى ، وعارض من اتهموه بالإلحاد والزندقة ، واعتبرهم من الكذابين[٥٤].

وخلاصة القول أن محمد أحمد قد اقتنع تماما بالأفكار التى تقول بظهور المهدى المنتظر ، وقد عرف منذ صباه المبكر بالتقوى والورع ، والزهد ، والانخراط فى الصوفية[٥٥]. ولم يشأ لفكرته أن تكون منبتة الصلة بالتراث الصوفى أو غريبة عليه ولذلك عند المقارنة بين الصوفية والمهدية حاول التقريب بينهما ، وفى نفس الوقت أبرز التباين والاختلاف ، أو كما ذهب الدكتور إبراهيم أبو سليم فإن المهدية أخذت أسس الطرق الصوفية ، وأضافت إليها أسسها الذاتية فأصبحت أعلى من الطرق وأوسع منها :"ويقول محمد أحمد فى هذا الصدد " الطريقة فيها الذل والانكسار وقلة الطعام وقلة الشراب والصبر وزيارة الأولياء " أما المهدية ففيها " الحرب ، والحزم ، والعزم ، والتوكل والاعتماد على الله ، واتفاق القول " ، وهذه شروط عامة يصعب أن يرفضها أى مسلم وقد دمج المهدى بينهما جميعا ، وذهب فى تحديد برنامجه إلى صيغة أكثر شمولا عندما يقول " إن المهدى قد جعله الله رحمة للمسلمين " ومثل هذه الصيغ الفضفاضة كانت ضرورية حتى لا تصبح عازلا بين المهدية والمؤسسات الدينية الأخرى ، وكان ذلك ضرورى فى بدايات الدعوة – وليس هروبا ، لأن الصراع

الأيديولوجي والسياسي وحتى العسكري كان قادماً لا محالة – حيث أن الاتجاهات الدينية للمهدية كانت أسلحة دفاعية وهجومية وكان يلزم كتمانها في مراحل الدعوة الأولى.(٥٦)

وإذا كان المهدى قد بدأ زاهدا في مسلكه الخاص ، وفي تركيزه على فكرة زوال الدنيا وفنائها ، وهي فكرة قديمة في الأدب الصوفي فإن المهدى لم يطرح هذه الأفكار كمجرد رفض مطلق لهذه الدنيا الفانية بل ربط ذلك بتكالب الناس على حب الدنيا ، وجمع المال ، والحرص على الوظائف والعمل في النظام الحكومي التركي المصري في داخل البلاد.(٥٧)

فلقد ربط بين أفكاره وبين سياساته في معاداة الحكومة التي أتت بالأجانب والترك ورغبته في زوالها وزوال ما يرتبط بها من الظلم والفساد .

وفي ضوء ما ذكرناه من مقدمات فقد جمع محمد أحمد بين اتجاهين متناقضين أولهما الاتجاه السلفي المتطرف، وثانيها الاتجاه الشيعي المتطرف(٥٨).

ووصل المهدى إلى فكرة المهدية محاطة بهالة من الفهم الباطني الشيعي الذي يوازي علم الساعة " فالمهدى حين ولادته عرفه أهل الباطن ، وظهور المهدى غير معلوم الوقت ، فعلم المهدية كعلم الساعة ، والنبي(ص) لم يوقن ولم يعين (موعد ظهور المهدى) ، وقال الشيخ أحمد بن إدريس سيخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونها " وبهذا انتزع المهدى المبادرة من كل أهل الظاهر وغدا الأمر باطنيا بحتا.

وتوصل الفكر الصوفي إلى مفهوم الظاهر والباطن في التعامل مع نصوص القرآن والسنة ، مما مكنه من الإفلات من مقولات الإسلام ومفاهيمه المسيطرة عن طريق إخضاع النصوص للمضمون المطلوب والمتناقض أحيانا مع نظرية المعرفة الإسلامية بدعوى أن هذه النصوص تحمل وجهين من المعاني وجه ظاهر للعامة ، ووجه باطن للخاصة من المتصوفة، ومن هذا الموقف اتخذت الصوفية مفهوما للمعرفة يصل بين الله والإنسان مباشرة بطريق المشاهدة الباطنية ، وألغوا كل وساطة بينهما (أي بين الله والإنسان) حتى وساطة الوحي والنبوة.(٥٩)

وإذا كانت الشيعة والصوفية ينطلقان من الرؤية الباطنية ، فإن المهدية قد وجدت طريقها من خلال الحركة الصوفية في سعيها الدؤوب لتغيير الواقع السئ وفي حاجتها إلى سلطة دنيوية منفذة بجانب القوة الروحية ، ولقد أعطت فكرة

المهدى المنتظر الصوفية ذراعا دنيويا ترفع به رايـــة العدالـــة الاجتماعيـــة[٦٠] خاصة وأن الأمل الذى كانت تسعى الدعوة المهدية إلى تحقيقه هو تغيير حالـــة التردى والسوء الذى عم حكومة الترك فى بلاد السودان ، وهكذا فـــإن الإمـــام المهدى قد استفاد من فكرة المهدية عند ابن عربى والشعرانى وغيرهمـــا كمـــا استفاد من الفكر الشيعى فى هذا الاتجاه ، ثم استفاد منه أيضا فى تكريس فكـــرة الباطنية فى التصوف مما برر تلقيه الأوامر والأسرار الخفية عن القوة الإلهيـــة والرسول الكريم(ص) دون وساطة، وهذا على الرغم من إصداره الأوامر بعـــد ذلك بإلغاء جميع الطرق الصوفية التى قطعت أوصال المجتمع السودانى ودعـــا إلى التوحيد ، وهو اتجاه سلفى سنى وأهل السنة لا يؤيدوا فكرة الإمامة .وكـــانوا يهزأون بفكرة الإمام الغائب وحياته السرية الطويلة ، ولـــو أن بعـــض الســـنة شاركوا الشيعة فى فكرة ظهور المهدى المنتظر أملا فى الخلاص من واقع حال الإسلام والمسلمين المتردى وتطلعا إلى عودة أمجاده.[٦١]

ولقد استمد المهدى جوهر دعوته كما هو واضح من الموروث الإســـلامى، كما يقول المهدى نفسه ومزج هذا كله بعناصر من صميم الواقع السودانى ، مما زاد سرعة الاستجابة لدعوة المهدى بين السودانيين الذين شعروا أنه المنقذ الذى يخاطبهم بما يحسون، ويلمس الآمال الكامنة فى أعماق نفوسهم، ووصل الأمر بالسودانيين فى هذا الوقت إلى الشعور بأن المهدية هى شـــعار المضطـــهدين، والمغلوبين على أمرهم، والجنة الموعودة للصابرين والشـــهداء والصديقيـــن، وأنها التعبير عـــن رغباتـــهم المكبوتـــة وطموحـــهم نحـــو الحريـــة والعـــدل الاجتماعى[٦٢].

والواقع أن أخذ محمد أحمد بفكرة المهدية لم يكن أساسه وجود الفكرة فـــى بطون الكتب أو ورودها فى مؤلفات ابن عربى فالواقع أن أخذه بالفكرة أتى مـــن أنها إفراز لظروف المجتمع، وإذا كانت المهدية تمثل الخروج من واقع الظلـــم إلى إطار من الشمول – المبنى على الإسلام – الذى يشكل أساسا جديـــدا مـــن التماسك يتخطى كل الروابط المحدودة ، القبليـــة أو الإقليميـــة أو العرقيـــة أو اللغوية، فكانت الفكرة – أيضا – عنصرا موحدا لأشتات القبائل والمجموعـــات الأخرى، وبدأ محمد أحمد المهدى بدعوته بين العلماء بما جاء فى الكتب ، وبين العامة بأسلوب ولغة تناسبهم متخذا من الحضرات والكرامات فرصـــة ووســـيلة لمخاطبتهم وكسبهم[٦٣].

أسباب الثورة المهدية[٦٤]

لقد مرت البلدان الإسلامية بفترات من التأزم خلال القرن التاسع عشر خاصة بسبب الهجمة الإمبريالية الشرسة التى استهدفت أراضيها ، والسيطرة والغطرسة التى ووجهت بها شعوبها – وكان السودان من المناطق التى توغلت فيها أيادى المستعمر البريطانى وألاعيبه – وفى هذا الوقت العصيب ذهب المسلمون فى بلدانهم المهددة بانهيارها السياسى أحيانا أو التى ابتعد فيها الناس عن الدين فى أحيان أخرى يفتشون فى موروثهم التاريخى الثقافى والدينى عن الأبعاد الرديكالية التى بإمكانها التصدى للفساد ومواجهة الدخلاء أو إزالة الحكومة المتسلطة .

والواقع أن جميع الحركات السياسية والدينية خلال العصور الوسطى وحتى القرن التاسع عشر فى بلدان الشرق الإسلامى كانت عبارة عن انعكاس للتراكم الكمى للاضطهاد والظلم الاجتماعى وتدنى الأوضاع الاقتصادية والسياسية حيث خرج هذا التراكم فى شكل مذهب دينى جديد أو حركة دينية إصلاحية أو صوفية ، وكانت الحركة المهدية فى السودان واحدة من هذه الحركات ذات الأهداف الدينية التى كانت تدعو السودانيين إلى عبادة الله ، ونبذ مباهج الدنيا وذات أهداف سياسية مؤداها التخلص من الحكومة التركية المصرية التى كرست السيطرة الأجنبية الأوربية والتركية[٦٥].

وعلى ذلك فإن الحركة المهدية بدأت فى أولى مراحلها كظاهرة اجتماعية دينية، إلا أن هذه الحركة قد تأثرت بالأحوال السياسية والدينية العامة وبمجريات الأحداث فى السودان وخارجه ، أى أن الظواهر الاجتماعية والسياسية قد انعكست على طرق التفكير ، وفلسفة التصوف والأيديولوجية المعارضة على وجه الخصوص انعكاسا حمل صورة اليأس من الواقع الملئ بالتناقضات المادية والطبقية ، وتولد عن ذلك تلك الرؤى الثورية التى تتوقف إمكاناتها على مدى تعبيرها عن الواقع الاقتصادى الاجتماعى للظرف التاريخى المواكب.

وبطبيعة الحال فإن الفكر لا ينشأ فى فراغ ، إنما يعبر عن واقع وهذا يحدد مدى إسهامه فى مجرى الصيرورة التاريخية ، ولأن محمد أحمد المهدى استطاع أن يحس بظروف الواقع السودانى المرير كما استطاع أن يقود ثورة تتطلع إلى تغيير هذا الواقع لمصلحة أهل السودان فى صراعهم ضد الحكم التركى المصرى لذلك فإنه قد اكتسب جماهيرية كاسحة والتفاف من أهل

السودان حوله ، وتدعيم له، وحول الثورة المهدية تتعدد الأسباب[٦٦] وتختلف التعليلات ، وهنا نقوم بطرح أهم هذه الأسباب وتحليلها تاريخيا وهى:

١- الظروف التى كان يمر بها العالم الإسلامى ومنه السودان

ظهرت الحركة المهدية فى السودان فى ظروف سيئة للغاية ، والسودان وبقية العالم الإسلامى كان معرضا وقتها للغزو الاستعمارى مما ترتب عليه ظهور حركة الجهاد الإسلامى التى حمل لواءها زعماء وإصلاحيون ، كمحمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية، ومحمد المهدى السنوسى فى ليبيا ، والأفغانى الذى تبنى حركة الجامعة الإسلامية فى كل بلدان العالم الإسلامى واستقر لفترة بمصر ، وحركة عثمان بن فودى فى غرب أفريقيا[٦٧] -كان هدفها العودة لأصول الدين والتصدى للغزو الأوربى – ولقد كان لأفكار الأفغانى وتلميذه محمد عبده أثر كبير فى قيام الثورة العرابية ، بل كان لهذه الأفكار أثر على ثورة المهدى فى السودان[٦٨].

وفى حضور هذا الجو من الهجمة الاستعمارية على بلدان العالم الإسلامى ينبغى النظر إلى الثورة المهدية نظرة شمولية وهى نظرة أوسع من النظرة المحلية المألوفة، وكان من الطبيعى أن تتسم الثورة بالطابع الدينى، فهذا الجانب هو الذى ميز الحركات المماثلة فى هذا الوقت، من حيث أنها تعمل على اجتذاب الجماهير حول الزعماء الدينيين الذين كانت لهم أهداف سياسية[٦٩].

ولما كان السودان يعيش فترة تاريخية سيئة للغاية لذلك أصبح السودانيون وبسبب حياة المعاناة فى ترقب وانتظار ، لقد كان الجميع – بموجب ذيوع وانتشار فكرة المهدية – يتوقعون ظهور المهدى ليملأ الدنيا عدلا وصلاحا بعد أن ملئت جورا وظلما ، وكانت أحاديث أهل الورع والتقى تدور حول المهدى خليفة النبى (ص) الذى سوف يظهر ، ولم يكن شعب السودان وحده فى هذا الانتظار بل ومعظم المسلمين الأفارقة الذين كانوا يستعجلون ظهوره لإنقاذهم من الخطر الأوربى المحدق بهم[٧٠].

ولم يأت عام ١٨٨١ حتى كان التذمر يعم كل أهل السودان بعد أن كان قاصرا على تجار الرقيق وحدهم ، وصار يكفى أن يظهر على مسرح الأحداث زعيم كمحمد أحمد حتى يجد الناس فى شخصه الزعامة الضرورية التى كان فى وسعها أن تجمع تحت لوائها كل العناصر المتذمرة من تجار الرقيق وسواد الأهالى لإنهاء العهد التركى المصرى الذى جلب الأجانب إلى السودان[٧١].

وإذا كانت الظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة داخل الجزيرة العربية قد أفضت إلى نزول الدين الإسلامى على يد سيدنا محمد(ص) ليوجه البشر نحو الإصلاح والفلاح وعبادة الله فإن نفس الظروف المادية والسياسية المتدنية فى بلاد السودان كانت هى المحرك الأساسى لقيام الثورة المهدية ، ولذلك كانت أصداء ثورة المهدى وانتصاراتها عظيمة فى أرجاء العالم الإسلامى .

ومع أننا نذهب مع الذين يوقنون بأن الضغط الأوربى على العالم الإسلامى واحتلال بعض أجزائه كانت سببا أساسيا لقيام الثورات والحركات الإسلامية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ومنها الثورة المهدية إلا أن "ب. م هولت" لا يتحمس لمثل هذه الأسباب بحجة أنها فى رأيه لا تبرر قيام الثورة المهدية، وذهب إلى أن أسباب الثورة يرجع إلى تقلص وضعف سلطة الخديو خاصة بعد طرد إسماعيل، وقيام الثورة العرابية فى مصر ضد ابنه توفيق، ونسى "هولت" أو تجاهل محاولات الاستعمار والضغط الأوربى حتى يبعد اللائمة والمسئولية عن الأوربيين أهله وزويه، كما أنه نسى أو تجاهل أن طرد إسماعيل جاء بيد الانجليز بل إن ظهور الثورة المهدية يرجع إلى سياسة غوردون قبل خروجه من الحكمدارية ولعنف طريقته فى منع تجارة الرقيق.

٢- سوء الأحوال الإدارية فى السودان:

سبب هام آخر لقيام الثورة المهدية هو سوء إدارة السودان ، ومما لا شك أن الحكم التركى المصرى فى السودان لم يخل من العيوب شأنه فى ذلك شأن غيره من نظم الحكم والإدارة ، إلا أن هذه العيوب قد زادت فى فترة الإدارة الأخيرة فى السودان خاصة إذا ما أخذنا فى اعتبارنا امتداد الامبراطورية المصرية إلى أقصى جنوب السودان وشرق أفريقيا مما زاد من صعوبة الحكم وتوفير الأمن والسيطرة ، ولكى تكون الأمور أكثر وضوحا لابد من الإشارة إلى أن الحكم التركى المصرى كان أول محاولة لإدخال النظام والقانون فى مجتمع يجنح بطبيعته – وقتها على الأقل – إلى حياة الفطرة والبساطة(٧٢).

وكان من أهم مشاكل إدارة السودان التغييرات السريعة فى القرارات والقيادات الإدارية، فلا يكاد يأخذ أمر ما مجراه بعد صدوره حتى يتلوه أمر آخر مخالف تماماً، كما حدث فى عملية توحيد السودان تحت حكمدارية واحدة . وبعد خمسة عشر يوما من صدور هذا القرار تم إلغاؤه نهائيا ، وتكرر الموقف نفسه فى تعيين كثير من كبار المسئولين والإداريين فى السودان ثم إحلال آخرين

مكانهم خلال وقت محدود[٧٣].

ولقد حالت الإدارة الخديوية المتعصبة للعناصر التركية دون وصول السودانيين إلى المناصب الإدارية والقيادات العليا فى دارفور[٧٤] وغيرها وهو نفس الموقف المتخذ تجاه العنصر المصرى ، ولعل من أهم أسباب ثورة عرابى عدم مساواة المصريين بالأتراك فى الترقية من رتبة صف الضباط إلى رتبة الضباط التى كانوا قد جعلوها حكرا أو تفضيلا للعنصر التركى فقط.

ويرى بعض المؤرخين – ولقولهم قدر من المصداقية – أن المسئولين المصريين نظروا إلى الخدمة فى السودان كعقوبة توقعها الحكومة على الذين تريد نفيهم وإبعادهم فى الفترة الأخيرة من الحكم المصرى التركى ، ولذلك تألفت الإدارة السودانية من عناصر رديئة كفى وجودها لكى تعطل أية إصلاحات تراها الحكومة الخديوية فى القاهرة أو حكام عام السودان فى الخرطوم ، ولقد كان ذلك معناه انتشار المظالم وسوء الإدارة حتى أن إيرل جرانفيل وزير الخارجية البريطانية قد أرسل إلى قنصل بريطانيا العام فى مصر لكى يتأكد من أنه قد أبلغ الحكومة المصرية أن من الواجب عليها أن تكون على علم بحوادث الرشوة وسوء الإدارة وفساد الأحكام التى تسود السودان[٧٥].

ومع ذلك لا يمكننا اعتبار هذا القول صحيحاً كل الصحة، فقد كان هناك عدد كبير من المسئولين خاصة من المصريين والسودانيين مشهود لهم بالكفاءة والأمانة.

ولقد تم توجيه النقد للحكومة الخديوية بأنها رغم توسعها الكبير فى السودان وشرق أفريقيا لم تستطع إقامة شبكة واسعة من الطرق والمواصلات السهلة التى تربط بين أجزاء إمبراطوريتها تمكن من حسن إدارتها.[٧٦] ورغم صحة هذا القول إلا أنه ينبغى أن نذكر أن إقامة مثل هذه الشبكة كان من الصعب توفيرها فى داخل السودان إلا عن طريق إقامة المشروعات الزراعية أو الصناعية الكبرى التى توفر للنفقات الضخمة اللازمة لعمل هذه الشبكة من الطرق والمواصلات وهذا لم يتم وقتها ، ولم يكن فى إمكان مصر توفير تلك المبالغ من ميزانيتها ، التى كانت وقتها فى أزمة مالية ، بل إن إنجلترا لم تستطع إقامة شبكة السكك الحديدية فى السودان بعد أكثر من نصف قرن من هذا الوقت إلا بعد استغلال مشروعات زراعة القطن فى الجزيرة ، ومن أجل استغلال مزارع الصمغ وتجارته فى دارفور وكردفان ، ولأهداف اقتصادية

وحربية فى بعض الأحيان[٧٧].

وعلى كل حال فإن الوثائق مليئة بما يدل دلالة قاطعة على سوء الإدارة السودانية مثل اغتيال الضباط الترك لبعضهم البعض وهروب السودانيين من الجيش ، ولقد كان لقرار استخدام الجنود السودانيين فى مصر فى بلاد غير بلادهم أثر سلبى أدى لشعورهم بالضيق والحنين إلى أوطانهم وإلى كثرة هروبهم من الخدمة العسكرية قاطعين مسافات طويلة عائدين إلى السودان وقد عاود كثير منهم الكرة بعد إلقاء القبض عليهم وذلك على الرغم من إعدام زملاء لهم لنفس السبب[٧٨].

والواقع أن تبنى الحكومة الخديوية سياسة منع تجارة العبيد بالشدة والعنف قد أدى إلى الشعور بالظلم والقسوة وضياع العدالة بطريقة ليست مقبولة إنسانياً، وقد بين كل من الرافعى وغيره الحالة التى كان عليها الشعب السودانى خلال هذا الوقت حيث يقول " إنهم حكام السودان – أوربيين أو أتراك – كلهم سواء فى إرهاق الأهلين ، وغالبهم كان يتخذ الوظائف وسيلة للرشوة والإثراء عن طريق غير مشروع ". ويضيف عبد الودود شلبى أن حكومة السودان فى هذا الوقت كانت " لعنة ، ونظام الحكم فى القاهرة عارا وسبة " وبأنه " لم يكن هناك قانون يحكم ، وحتى لو كان هناك قانون فلن يجد من ينطق به ، كل شئ كان منهارا ، فساد ورشوة وظلم ، وحكام جهلة قساة فقدوا كل إحساس بالعدل والكرامة " ولذلك فإن السودانيين تمنوا فى أواخر أيام الحكم التركى المصرى زواله نهائيا ، فقبل قيام الثورة المهدية ، حدثت حركة تمرد واسعة من سليمان بن الزبير ضد الحكومة ، وفى عام ١٨٨٠ قامت ثورة الأمير هارون فى دارفور ولكنها كانت محدودة وأمكن قمعها .

ولقد أثارت الحكومة الخديوية وحكمدارية السودان تجار الرقيق والجلابة ضدها ليس فقط بسبب وقف نشاطهم الذى هو مصدر الدخل لهم وإنما لأن الأرباح التجارية بدأت تتراكم خارج السودان مع ضيق السكان وضعف مواردهم الاقتصادية والمالية بسبب الحملات العسكرية العنيفة[٧٩].

والحق أن الحكومة لم تَستَعْد تجار الرقيق ضدها فقط بل أنها قد استعدت معظم طبقات الشعب السودانى وفئاته التى سحقها الفقر ، وأثقل كاهلها عبء الضرائب ، واضطراب الأمن، وسوء الإدارة وأدت كثرة مشاكل الحكم إلى إضعاف فاعليته ، مما انعكس سلبيا على حركة الإنتاج والاقتصاد والتجارة

خاصة فى الأماكن القصية[٨٠].

وبسبب ضخامة الانفاق العسكرى فى السودان صارت إدارته تواجه مشكلات توفير مرتبات الموظفين والجند ، مما اضطر بعض الموظفين إلى الاستدانة لاستكمال متطلبات حياتهم أول الأمر ثم مال بعضهم إلى استغلال نفوذه بتكبيل الأهالى بدفع الغرامات التى لم تفرضها الحكومة.[٨١]

وأدى خروج الإداريين عن جادة الصواب وانتشار عمليات ضرب الأهالى وحبسهم ، وإجبار الناس على دفع الأتاوات بخلاف الضرائب وعدم مراعاة تعاليم الإسلام إلى إلتفاف الناس حول محمد أحمد الذى تحدى السلطة[٨٢] ، وأعلن الثورة على الحكومة ، وأبلغها بأنه المهدى المنتظر الذى جاء ليعيد الحق إلى نصابه ، والإسلام إلى صفائه ، ويهزم أعداء الدين.

ولقد شاهد محمد أحمد فيما شاهد أرواحا مهددة ، وحريات مغتصبة وأملاكا منهوبة ، وبلادا مخربة والناس بين أثرياء ساقتهم تيارات النعيم إلى الشهوات والغواية ، وبين فقراء طحنتهم الفاقة ففقدوا زمام التجمل بالصبر وانجرفوا إلى الفساد والهاوية ، ثم أن حكومة القاهرة أرسلت الأجانب لقيادة الحملات العكسرية ضد ثورة المهدى الإسلامية وهؤلاء فضلا عن أنهم لم يكونوا مخلصين لمصر كان أسلوبهم فى الحكم موسوما بالتحدى لشعائر الإسلام وفرائضه مما أثار الناس ضد الحكومة .

ويوجه المهدى قوله لبعض السودانيين مبينا لهم مساوئ الحكم التركى المصرى، يقول: "أن الترك كانوا يسحبون رجالكم ويسجنونهم فى القيد ويأسرون نساءكم ويقتلون النفس التى حرم الله بغير الحق، وكل ذلك لأجل الجزية (الضرائب) التى لم يأمر الله بها ولا رسوله"[٨٣].

وخلال محاولات حكومة السودان للتصدى للثورة المهدية والضرورة الملحة لتوفير القوات اللازمة للسيطرة على الأمن فى البلاد ، تم استعادة أفراد من الجند الباشبازوق إلى الخدمة ، وهم من الذين عملوا من قبل فى جيش التركية وكان قد تم تسريحهم أو رفتهم لسوء السلوك ، ولقد كانت عودة هؤلاء خطرا جسيما حيث تم جمعهم من شتى أنحاء السودان وتم توجيههم إلى دارفور وفى غمار المعارك التى منيت فيها حكومة السودان بالهزائم المدمرة على يد قوات المهدى انضمت كثير من قوات الباشبوزق هذه إلى المهديين مما شل قدرة الجيوش التركية المصرية ذات القيادة الأوربية وعجل باستسلامها[٨٤].

وبعد عزل الخديو إسماعيل عام ١٨٧٩ واستقالة غوردون فى نفس العام جاء رؤوف باشا كحاكم عام للسودان على ميراث من سوء الأحوال غير أنه فشل فى توفير إدارة قوية صالحة ١٨٨١ ، وفى منع تجارة الرقيق ، ولقد كان وقته يشاهد غليان السودان بالثورة بعد السياسات المفجعة التى اتبعها غوردون ومساعدوه من الأوربيين ، وكانت مصر خلال نفس الفترة تعبر عن غليانها هى الأخرى بالثورة العرابية مما شغلها بحالها عن التجاوب مع حال السودان ، ثم وقع الاحتلال البريطانى على مصر ١٨٨٢ وقامت بريطانيا بتوجيه أحوال وشئون السودان فأمرت باستبعاد عبدالقادر حلمى وأحلت محله علاء الدين باشا على حكمدارية السودان ، وعينت " هكس " رئيسا لأركان الحملة موجهة إلى السودان بقيادة سليمان نيازى باشا ، إلا أن " هكس " لم يسترح له بال حتى أصبح قائد الحملة بعد إقالة سليمان نيازى[٨٥] وكان تعيين رجل انجليزى مسيحى لقيادة حملة موجهة لضرب ثورة دينية إسلامية فى السودان خطأ فادح دفع بالمترددين من السودانيين إلى الانضمام إلى المهديين وإلى الارتماء فى أحضانهم ، خاصة وأن المؤشرات كانت تدل على انتصارهم واحتمال سقوط حكومة السودان التركية المصرية.

٣- استخدام سياسة العنف فى منع تجارة العبيد :

لقد كانت سياسة العنف التى اتبعتها حكومة الخرطوم فى منع تجارة الرقيق واحدا من أهم أسباب قيام الثورة المهدية، ومنذ وقت مبكر أدى فتح مناطق النيل الأبيض للملاحة والوصول إلى "غندكورو" فى جنوب السودان إلى ازدهار تجارة الرقيق، ولذلك فإن أقاليم واسعة كانت قد خرجت من نفوذ حكومة الخرطوم وخضعت لسلطان تجار العبيد، مما تطلب من الحكومة الخديوية بذل كثير من الجهد لمحاربة تجارة الرقيق، وأعدت الحكومة فى عهد سعيد برنامجا مفصلا يفرض الرقابة الصارمة على نشاط النخاسين، ويرفع حماية قناصل الدول لتجار الرقيق من الأوربيين وغيرهم، وكانت إنجلترا قد أولت اهتماما كبيرا بمنع هذه التجارة فى السودان ومصر كما كانت مهتمة بهذا المنع فى أنحاء العالم المختلفة، ومنذ وصول اسماعيل إلى الحكم فى ١٨٦٣ زاد الاهتمام الإنجليزى بإلغاء النخاسة فى السودان، وكان الخديو إسماعيل صادقا فى سياسته لمنع هذه التجارة، وتلبية رغبة بريطانيا الملحة فى هذا الأمر، ويؤكد هذا القول أنه استخدم "السير صمويل بيكر" كمأمور للمديرية الاستوائية من ١٨٦٩ وحتى ١٨٧٣ ثم الكولونيل "غوردون" فى نفس الوظيفة من ١٨٧٣ وحتى ١٨٧٧، وقد

كانت سياسة الأخير غاية فى التشدد فى منع هذه التجارة تنفيذا لسياسة بريطانيا، فوضع عددا من القرارات التى قيدت حركة السفر والتجارة فى المديرية الاستوائية، واحتكرت تجارة العاج لحساب الحكومة، ومنعت إدخال الأسلحة النارية، وكانت هذه الإجراءات ضربة قاتلة لتجار العبيد، وسببا من الأسباب الأساسية لقيام الثورة المهدية فيما بعد[٨٦].

واهتمت إنجلترا بإغلاق منافذ تصدير الرقيق على ساحل البحر الأحمر الغربى، وشاطئ خليج عدن الجنوبى، وهذا هو السر وراء اعتزامها الاعتراف بحقوق مصر فى تلك الأصقاع، بهدف تحميل مصر مسئولية مراقبة تلك السواحل والمنافذ ١٨٧٣.

ولكى تنفذ الحكومة الخديوية أوامر انجلترا وتوجيهاتها عينت كثيرا من الإداريين الأجانب الذين تولوا – إضافة إلى مسئوليات الإدارة – عملية منع استخدام الرق وتجارته المنتشرة فى السودان ، إلا أن هؤلاء الأجانب كانوا يتجاهلون الأوضاع المحلية للبلاد ، وما كانت تتطلبه من نظم إنتاجية واقتصادية تعتمد على عمل الرق[٨٧]، فقد كان الرقيق شأنا محوريا فى شئون السلطات والقبائل الحاكمة والتجار، وفى معاش رعاياها لتغلغله فى لحمة المجتمع وسداه، وشاهد العهد التركى المصرى فى بداياته نشاطا فى حركة استخدام الرق وتجارته[٨٨]، وحاول محمد على تكوين جيش حديث معتمدا على السودانيين، ولكن محاولته لم تنجح غير أن تجارة الرق كانت مستشرية فى السودان.

وفى المجتمع السودانى كانت الطبقتان الأرستقراطية والوسطى بالذات تعتمدن كليا على عمل الرقيق ، سواء فى الأعمال الزراعية أو التجارية أو حتى المنزلية ، كما أن بعض تجار الرقيق قد جندوا أعدادا كبيرة منه الرق فى جيوشهم التى استغلت فى جمع المزيد من الرقيق وفى محاربة الإدارات والحكومات السودانية التى ركزت على منع تجارة العبيد[٨٩].

وبعد أن دخلت القوات التركية المصرية سنة ١٨٧٥ دارفور وضمتها لحكومة السودان أمرت على الفور بتحرير الرقيق ومنع تجارته ، وكانت أقاليم غرب السودان قد استقر فيها نظام الرق حتى صار جزءا أساسيا من البناء الاقتصادى الاجتماعى[٩٠].

وتكررت أوامر الحكومة الخديوية الصادرة إلى مديرى عموم السودان بمنع

الرق وتجارته ، وقد جاء فى واحد من هذه الأوامر المؤرخ بـ١٨ مايو ١٨٧٣ "أن غاية آمالنا ومقصدنا صرف الاجتهاد الكلى... فى إبطال التجارة فى الرقيق بأى وجه كان..."[٩١] ولقد كان قرار الحكومة باحتكار تجارة العاج سنة ١٨٧٤ ذات أثر سلبى على مصالح التجار والمتصلين بمصالحهم معهم مما أدى إلى انتشار حركات التمرد والعصيان ضد الحكومة[٩٢]، وقد واجه غوردون بوصفه حاكما لمديرية خط الاستواء وحاكم عام بعد ذلك تلك الحركات بمنتهى الشدة، وفى هذا المقام يصف بعض المؤرخين سياسة غوردون بأنها: "آلت من قبيل منع النخاسين إلى إبعاد قلوب الأهالى عن الحكومة المصرية ونفورهم منها"[٩٣].

وبعد ضم إقليم دارفور ١٨٧٥ قررت الحكومة تكوين قوات أمن وجيش إضافيين لإقرار النظام هناك ، وكانت الحكومة الخديوية بحاجة إلى تجنيد الجنود بأعداد كبيرة ، فتولى حكمدارو الأقاليم جمع المجندين وإرسالهم للتدريب العسكرى فى مصر قبل أن يعودوا للعمل فى خدمة الحكومة فى دارفور ، يبدو أن مسألة إرسال الرقيق قد صارت كالمسابقة بين حكمدارى أقاليم السودان واشترك فيها الزبير باشا فى دارفور ثم بحر الغزال ، وإسماعيل أيوب فى دارفور ، وغوردون – وهذا هو المهم – فى المديرية الاستوائية والذى تعهد للخديوى بإرسال ثلاثة آلاف من الزنوج من جهات " غوندوكورو " مما حفز كل من إسماعيل أيوب ، والزبير – الذى فتح دارفور وانتصر على سلطانها إبراهيم ودخل الفاشر – بأن يحذوا حذوه فى هذا العمل[٩٤].

وتولى غوردون منصب حاكم عام السودان بين سنتى ١٨٧٧ ، ١٨٧٩ بناء على توجيهات إنجلترا وقرار الخديو ، خاصة أنه أثبت خلال توليه إدارة المديرية الاستوائية فى الفترة من ١٨٧٤ إلى ١٨٧٧ أنه أكثر مديرى السودان الجنوبى شدة فى منع تجارة العبيد ، حيث كان ينفذ فى الواقع سياسة لندن لا سياسة الخديو فى القاهرة ، ولذلك تم عقد اتفاقية منع تجارة الرقيق مع بريطانيا فى عهد حكمداريته فى أغسطس ١٨٧٧ حيث جاء فيها " كل شخص يوجد بأرض مصر أو بحدودها أو بالجهات التابعة لها بوسط إفريقيا متعاطيا بيع الرقيق السودانى أو الحبشى مباشرة أو بواسطة غيره تعتبره الحكومة المصرية هو ومن يكون مشتركا معه بمنزلة السارقين القاتلين ، فإن كان من تبعتها يحاكم أمام مجلس عسكرى وإلا تحال حالا محاكمته على المجالس المختصة بذلك ، وترسل المحاضر المحررة من الجهة العليا من جهات الحكومة المصرية فى المحل الذى ثبت فيه حصول التجارة وكافة الأوراق والمستندات الدالة على

جنحته للحكم فيها بمقتضى قوانين الحكومة التي يكون تابعا لها مـــادامت هـــذه القوانين تجيز ذلك ، وما يوجد من الرقيق... بأيدى أى تاجر يصـــير إعطـــاؤه حريته..."[٩٥].

وكان عقد هذه الاتفاقية فى الواقع عملا خاليا من الحكمة، وكـــان الأمـــر يتطلب التدرج فى منع تجارة الرقيق، التى كان يعتمد عليها العمـــل الإنتـــاجى والتجارى بالسودان، حيث كان المجتمع لا يزال فى حالة من عدم التوازن التـــى تواكب الفترات الانتقالية ما بين الإقطاع الشرقى الذى كان يعتمد على التقـــاليد والتراث والموروث الروحانى بما فيه من استخدام الرق إلى النظام الرأســمالى، ولم يكن قد استوعب هذا المجتمع بعد نظام الحكـــم السياســـى، الـــذى يخضـــع لحكومة مركزية مسئولة عن إقرار الأمن وسيادة القانون وجمع الضرائـــب[٩٦] وحرية الأفراد، ونمو الطبقة الوسطى، وإلغاء العبودية وظهور الطبقة العاملة.

ولقد أدت سياسة العنف فى منع تجارة العبيد إلى الفساد ، وانحطاط القيـــم الأخلاقية بشكل يتنافى مع عادات البلاد وتقاليد أهلها[٩٧] ، ولقد تجاوز الأجـــانب الذين استعان بهم غوردون لمنع هذه التجارة كـــل الحـــدود لتنفيـــذ الاتفاقيـــات والقوانين المتصلة بمنع الرق ، وكان غوردون باشا يصدر أحكامه بالإعدام رميا بالرصاص على كل من يشتبه فيه هو أو أعوانه بممارسة هذه النخاسة[٩٨].

وجاء فيما كتبه غوردون فى يوليو ١٨٧٨ حول القبض على عـــدد مـــن تجار الرقيق والعبيد الذين معهم يقول " قبضنا على اثنتا عشرة قافلة رقيق فـــى مدة شهرين " وقال كذلك " إنى أوجه ضربة قاصمة لتجارة الرقيق ، وقد أقمـــت ما يشبه الحكومة الإرهابية فى معاملة هذه التجارة"[٩٩] وليس أكثر مـــن ذلـــك اعترافا باستخدام العنف والإرهاب وظلم الناس ، هذا فى الوقت الذى كان يعلـــم فيه غوردون أن الحكومة الخديوية لن يمكنها تنفيذ اتفاقية ١٨٧٧ لمنع تجـــارة الرقيق وأنها أرغمت على عقدها مع بريطانيا.

ولما كان من المقرر منع هذه التجارة فى السودان – و مصر – نهائيا فى غضون اثنى عشر عاما فقد كتب كولونيل ستيوارت فى تقريره الشهير بعد ست سنوات من عقد الاتفاقية أنه من المستحيل أن يتوقع أى إنسان زوال الرق فـــى السودان فى نهاية المدة المحددة للاتفاقية وهو سنة ١٨٨٩[١٠٠].

وكانت مصر حريصة على منع هذه التجارة فى بـــلاد الســـودان خشـــية الموقف البريطانى منذ البداية، ولذلك كانت ترسل تعليماتها إلى حكومة الســودان

بضرورة الاحتياط والحذر، وذلك كما يبدو من خطاب مؤرخ بـ٨ يونيه ١٨٧٤ موجه من الحكومة الخديوية إلى حاكم عام السودان جاء فيه "فى حالة توجه غوردون إلى "غوندوكورو" فى جنوب السودان لابد أن يمر على جهات شكا وبحر الغزال، وربما أن يجد شيئا من تجارة الرقيق... وإذا رأى شيئا من هذا القبيل بالضرورة يتقول بأقوال ... ويحرر من طرفه بذلك إلى أوربا ولوندرة (لندن) ويترتب على ذلك القال والقيل"[١٠١]، ومن المفارقات الغريبة أن غوردون نفسه قد سخر عملياته فى منع تجارة العبيد ربما لتحقيق مصالح خاصة به.

ويذكر لنا محمود طلعت صاحب كتاب "غرائب الزمان فى فتح السودان" ما رآه خلال زيارته لواحدة من شون الحكومة المعدة فى الخرطوم لجمع الرقيق الذى تمت مصادرته يقول: " ودخلنا وإذا بها (الشون) من صنف الخدم (العبيد) شئ لا يعد فلما نظرت ذلك (المشهد) اندهشت لكثرتهم، قلت للتاجر الموجود، ما هذا؟ قال ألم تنظر قلت: نعم أنظر رقا، ولكن هذا شئ كبير، رغم إبطال التجارة قال: نعم كل هؤلاء قد صار ضبطهم من التجار وسجنوا فى المحل، خلاف اثنى عشر ألفا من الشباب أعمارهم من بين ١٧، ١٩ عاما فقد أرسلهم غوردون إلى الهند عن طريق مصوع، ولا أدرى إذا كان يتجر فيهم أو أرسلهم هدية لدولته".

وجدير بالذكر أن غوردون والإداريين الأوربيين فى السودان كانوا يستخدمون العنف فقط مع التجار العرب من الدناقلة ، والمصريين ومنهم القبط والترك أما التجار الأوربيون – الذين يغفلهم هولت – فكانوا يعاملون باللين[١٠٢]، بل إن الحكومة لم تعوض التجار ولا الأهلين عن الرق الذى تمت مصادرته.

واحتكرت الحكومة أيضا تجارة العاج مما ضيق على التجار سبل الرزق وأساليب التكسب[١٠٣] ، وكان الإنجليز إما عاجزين عن إدراك خطورة ردود الأفعال التى حدثت فى السودان نتيجة العنف الذى مورس لمنع تجارة العبيد خاصة بعد عزل إسماعيل ١٨٧٩ واستقالة غوردون فى نفس العام ، وإما أنهم كانوا يتصفون بسوء النية بمعنى أنهم نصحوا باستخدام العنف فى منع تجارة الرقيق رغبة فى خلق روح الثورة التى كانت بادية فى البلاد ، وفى رأيى أنهم كانوا عاجزين عن إدراك خطورة موقف أهل السودان من منع النخاسة كما أن سوء النية كان متوفرا لديهم .

ولما جاء الخديو توفيق كانت المشكلة أنه رأى بنفسه عزل أبيه بفعل التدخل الأوربى خاصة الإنجليزى ، ثم أنه قد اعتمد على القوى الأجنبية لحماية

نفسه ضد الحركة الوطنية بقيادة عرابى فى مصر ، ولذلك اعتمد على الوصاية الأوربية ، والقنصل البريطانى العام فى جميع إجراءاته الإدارية والعسكرية والسياسية سواء فى مصر أو فى السودان[١٠٤] ، وعليه فإنه سعى سعيا حثيثا لتنفيذ اتفاقية منع تجارة الرقيق المنعقدة مع بريطانيا سنة ١٩٧٧ .

والواقع أن سياسة العنف لم تحد من نشاط تجار الرقيق ، وصار المسئولون فى القاهرة يشكون من أن تجار الرقيق فى عهد حكمدارية رؤوف باشا كانوا يتمتعون بقوة أكبر مما كانت لهم على أيام غوردون ، وفى غضون عام ١٨٨٠ – ١٨٨١ تكررت شكاوى للحكومة الإنجليزية أكثر من أى وقت مضى ، وأن حكومة الخرطوم أصبحت عاجزة عن تنفيذ معاهدة إلغاء الرق ، وترتب على ضغط الحكومة الإنجليزية بوساطة ممثليها فى مصر أن أصدرت حكومة الخديو تعليماتها المشددة إلى رؤوف باشا لمضاعفة جهوده لإخماد هذه التجارة ، وسهر رؤوف على تنفيذ سياسة الإلغاء ، وسلك فى ذلك طريق العنف والصرامة ، واتبع الشدة نفسها التى اتبعها غوردون ، وأبقى على الموظفين الأجانب الذين عينهم غوردون والذين ظلوا فى مراكزهم حتى قيام الثورة المهدية ، وهؤلاء عاملوا تجار الرقيق أقسى معاملة، وقدموا كل من يقبض عليه منهم للمحاكمة ، وفى كثير من الأحيان حسب الأحكام العسكرية ، وصدرت عليهم فى حالات كثيرة أحكام الإعدام.

وأدت تلك السياسة العنيفة وغير التدريجية – والتى لم تراع عادات وتقاليد وأسلوب إنتاج المجتمع السودانى – إلى قيام الثورة والتمرد فى مديريات متعددة، حيث قامت ثورة سليمان بن الزبير فى بحر الغزال١٨٧٩، وثورة "صباحى" فى كردفان حوالى عام ١٨٨٠ ، وثورة هارون فى دارفور[١٠٥] أى أن بلاد السودان كلها تقريبا كانت مؤهلة للسير وراء أى زعيم أو ثائر يتصدى لإسقاط الحكم القائم ، ولذلك عندما أعلن محمد أحمد مهديته وثورته على الحكومة ١٨٧٩ انضمت إليه جموع غفيرة من رجال القبائل الغربية بالذات وتجار الرقيق . ولم يكن هذا الانضمام من قبل الناس لثورة المهدى والقدوم لمبايعته والكفاح معه باعتباره رجلاً دينياً بقدر ما كان انضمام للبطل المنقذ الذى ينتظره أهل السودان لإخراجهم من الأوضاع الاجتماعية المتردية.

ولما كانت عمليات منع تجارة العبيد بأسلوب العنف قد ألحقت الأذى بتجار السودان عامة وتجار الرقيق خاصة مما أدى إلى تذمرهم من الحكومة فصاروا ينتهزون الفرصة لمقاومتها ، وانضموا إلى المهدى عند إشعال الثورة.

٤- فرض الضرائب الباهظة واستخدام العنف فى جمعها:

كانت المسألة الضريبية من العوامل الرئيسية لتفاقم الأزمة فى السودان، وقامت حركات التمرد منذ وقت مبكر فى شندى والقرى المجاورة لها، وتكررت الشكوى من قسوة الضرائب، وقد حدث هذا عندما اعترض أهالى بربر والخرطوم على الضرائب، وأشاروا إلى أن الأرض لا تنتج محصولاً كافياً، وقد شاهد ذلك حكمدار السودان بنفسه محمد رؤوف باشا عام ١٨٨٠، كذلك لم يكن بمقدور أهالى بربر تحمل ما عليهم من أموال بسبب زيادة الضريبة، ولذلك كانت جموع الأهالى تهرب فى بعض الأحيان من أراضيها(١٠٦).

وكان ضمن الضرائب المفروضة ضريبة "الدقندى" وهى ضريبة عينية يدفعها الزراع فى دارفور لصاحب الأرض المزروعة بجنائن الصمغ ، وقد عجز الزراع عن دفعها للملاك الذين كانوا بدورهم بحاجة إليها لدفعها كضرائب للسلطات الحكومية ، وكانت سياسة الحكومة تجبر من يتأخر عن دفع الضريبة من الملاك بترك أرضه أو بيعها لمن يقدر على دفع ما عليها من ضرائب(١٠٧).

ولمس المهدى تلك الظروف البائسة القاسية التى كان يعيشها أهل السودان عامة ، والمجتمع الكردفانى بصفة خاصة أول من ترسبت فى نفوسه روح الغضب والكراهية للحكومة السودانية ، فوسع دائرة جهاده واتصل بمشايخ قبائل الرزيقات وفوض " مادبو " أميرا على قبيلته من قبله ، ونصب المكى ود إبراهيم على قبائل الحمر ووضع عبد الصمد أبو صفية على قبائل البديرية ، وولى " نواى " على الحوازمة ، فأشعلوها ثورة فى كردفان ، حيث وقع الاحتكاك بقوات الحكومة عندما كان البكباشى " نظيم أفندى " يجمع الضرائب فى منطقة " أم حفرو " بدار حمر ، فثار عليه الأهالى ومزقوا دفاتر الحكومة ، واستولوا على الأموال التى كان قد تم جمعها ، وأعلنوا العصيان ، كما ثار الأهالى فى أبى حراز على الناظر " محمد أغا رحمة " مما اضطره إلى طلب نجدة من الأبيض لمساعدته ، وإزاء ذلك تجمعت قوات أهلية من رجال قبائل حمر بقيادة المكى ود إبراهيم ، ومن قبائل البديرية وقاتلوا جنود الحكومة وانتصروا عليها(١٠٨).

وفى مناطق قبائل الدنكا بشمال جنوب السودان قامت الثورة فى بلاد " الآجار " - وتقع قريتهم غرب " شانبيه " - حيث شن الأهالى هجوما على جميع موظفى محطة " رومبك " ورجالها ١٨٨٣ وانتهى الأمر بذبح وإبادة جميع

موظفى محطة " رومبك " ورجالها السبعين من الجند الجهادية بقيادة الضابط عبد الله السودانى ، وامتدت الثورة إلى المناطق المحيطة ، وكان السبب فى ذلك ليس فقط إخضاع هذه المناطق للنظام الحكومى لأول مرة وإلزامهم بدفع الضرائب ، بل وتكرار تحصيل الضرائب العينية بالقوة والخروج عن أصول العدل من جانب مأمور " رول " التى كانت تتبعها بلاد الآجار مما حفز الناس للتعاطف مع المهديين .

أسباب الثورة المهدية(ب)

٥- سيطرة العنصر التركى على حكومة السودان :

كانت مصر من الناحية الرسمية ولاية عثمانية، ولذلك ظل العنصر التركى هو الغالب فى المراكز القيادية للحكومة الخديوية ، وكان السودان وحكمداره العام وإداراته جزءا من أملاك مصر ، لذلك ساده كثير مما ساد مصر من سيطرة الأتراك والأجانب على شئونه وأقاليمه ، وكانوا هم بالتالى المسئولين عن سوء الأحوال التى عمت بلاد السودان قبيل الثورة المهدية لذلك فقد اعتبر المهدى الأتراك والأجانب خارجين عن الدين أو كفار ومستغلين ينادون بمنع تجارة الرق وهم أنفسهم تجار رقيق وعاج ، وكان شعور المهدى والواعين من السودانيين أن الحكم التركى والأوربى يسيطر على مصر كما يسيطر على السودان ، ولذلك لم تكن للمهدى من حيث المبدأ نقمة على المصريين ، بل إنه أراد أن يفدى عرابى بغوردون إذا تم أسر الأخير ولكنه قتل عند سقوط الخرطوم ، ولقد كان المهدى وأهل السودان يرون أن وجود الأتراك – إضافة لوجود الأوربيين – فى الوظائف الكبرى معناه حرمان المصريين والسودانيين من مثل هذه المراكز الإدارية ، ولذلك كان من أهم أهداف الثورة المهدية ليس فقط إسقاط الحكومة ، وإنما أيضا طرد الأتراك والأجانب[١٠٩] ، ومن المعروف أن الثورة العرابية فى مصر كان من أهم أهدافها مساواة الجنود والضباط من المصريين بأمثالهم من الأتراك فى المرتبات والترقى.

وحينما نستعرض أسماء إدارة حكومة السودان نجد أن الوظائف الصغرى كالكتبة والجند وصغار الرتب والعمالة من المصريين ، وربما من السودانيين أما حكمدارية السودان ومديرو الأقاليم وكبار ضباط الجيش فهم من الأتراك مع قليل من الاستثناء ويظهر أمامنا من استعراض قائمة حكمدارية السودان من الترك أسماء أحمد جركس باشا ، وسليم أيوب باشا الخربوطلى ، وسرى

الأرنؤودى باشا ، وجركس على باشا ... الخ[١١٠]، وكان الأتراك يتكلمون اللغة التركية التى لا يفهمها السودانيون .

ولقد بيّن المهدى فى منشوراته ظلم الأتراك ، وأظهر كرهه لهم يقول فى إحدى هذه المنشورات: "إن هؤلاء الترك لما بسط الله عليهم النعم ومد لهم فى العمر وطول العافية ظنوا أن الملك لهم، والأمر بيديهم، وخالفوا أمر رسول الله فى الاقتداء، وحكموا بغير ما أنزل الله، ووضعوا الجزية (الضرائب) فى رقابكم (يخاطب السودانيين) مع سائر المسلمين، ومع ذلك أمهلهم الله، وبسط عليهم النعم فلم يتفكروا حتى خذلهم وسلبهم ثوب الملك والهيبة" (إشارة إلى انتصار المهدى عليهم) بتعديهم حدود الله[١١١].

ولما تمكن الجيش التركى المصرى من التقدم فى فترة من فترات الحوب بينه وبين جنود المهدى نحو الأبيض ذهبت جماعة من الناس إلى المهدى ، ليبلغوه ذلك خوفا على متاعهم وأرضهم ونسائهم وذريتهم فالتفت إليهم المهدى وقال : " يا أيها الناس أنصتوا ، ثم بصق فى يده اليسرى وقال، أى شئ هذا ؟ قالوا بصاق يا سيدى ، ثم طرحه على الأرض فشربته فى الحال ، ثم قال للناس : هل ترون لهذا البصاق أثرا ؟ فقالوا لا ،فقال : نحن كالأرض والترك كالبصاق ، ثم قال طار طائر فأين ينزل ؟ فقالوا له على الأرض فقال لهم ، إن الترك كالطائر ونحن كالأرض ، أيها الناس اثبتوا واطمئنوا .. فإن الترك لا قدرة لهم مع قدرة الله"[١١٢].

٦- استخدام الأوربيين والأجانب فى إدارات حكومة السودان :

من طبيعة المجتمع السودانى الإغراق فى الروحانية، والتمسك بالدين الإسلامى، ولذلك انتشرت فيه الطرق الصوفية ، وكان هذا المجتمع رافضاً لأن يكون حكامه من الأوربيين غير المسلمين، خاصة أنهم اتصفوا بالعنف والتعصب.

وكان الأوربيون والأجانب قد تغلغلوا فى إدارة مديريات السودان والعمل فى الرحلات الاستكشافية فى غرب وشرق وجنوب السودان منذ وقت مبكر، فقد عمل هناك من الألمان روبل ١٨٢٥، وروسيجير ١٨٣٧، وفرن ١٨٤٠، ومن الفرنسيين كادلفين ١٨٣٩، وبروفيرى ١٨٣٩، وكومبى ١٨٣٣، وبرون روليه ١٨٤٣، ومن الإنجليز هوسكنس ١٨٣٣، وهولرويد ١٨٣٦، وبالم ١٨٣٧، وميلر ١٨٥٠، وغير هؤلاء كثيرون منهم الماجور جنرال الأونورايل فيتج

ستيوارت، ورتلى لبتون، والرحالة وعالم الطبيعة فى حوض نهر السوباط دكتور جونكر، والطوبوغرافى الإيطالى الأصل "كازاتى" والضابط البحرى الأمريكى "ماسون بك" الذى اشترك فى عمليات مسح الأراضى، وشاييه لونج بك الذى اشترك فى مشروع توصيل البحيرات الاستوائية بالمحيط الهندى وهو مشروع لم يتم(١١٣).

ولكى يقنع الأجانب للحكومة الخديوية بتعيينهم والوثوق بهم بدلا من المصريين وصم الإنجليز الموظفين المصريين المشهود بفكاءتهم بالتقصير وضيق النظر، واتهموهم بالاتجار فى العبيد، وقبول الرشوة، ومن أهم هؤلاء ممتاز باشا حاكم عام السودان الذى عمل على تطوير شئونه الإدارية والزراعية...إلخ، والذى أعيد إلى مصر مقبوضا عليه ، وهذا هو نفس ما حدث بالنسبة للزبير باشا القائد السودانى العظيم الذى خدم مصر فى جنوب وغرب السودان ، والذى تم ترحيله إلى القاهرة ، ولم يسمح له بالعودة إلى السودان ، وكان الخديو إسماعيل قد عين صمويل بيكر مديرا للاستوائية ١٨٧٢ بهدف توسيع نفوذ مصر فيها وتنظيم الإدارة ، ومنع تجارة العبيد وجاء بعده كحاكم للاستوائية غوردون باشا من ١٨٧٤ إلى ١٨٧٧ ، حيث كانت أوامر إسماعيل له بمنع تجارة العبيد ولكن بصورة إنسانية حيث يقول له" حان الوقت ليفهم الجميع هناك أن الفرق فى اللون ، لا يحول الإنسان إلى سلعة ، وأن الحياة والحرية مقدستان"(١١٤).

وبعد أن عين غوردون حكمدارا عاما للسودان ارتكب أخطاء فادحة عن عمد أو عن جهل مما ساعد على إشعال الثورة المهدية، ومن أهم هذه الأخطاء أنه قام بعزل عدد كبير من الموظفين المصريين والسودانيين الأكفاء واستبدل بهم جماعة من الأوربيين، وكان من المصريين الذين عزلهم محمد رؤوف باشا حكمدار هرر، ومن السودانيين يوسف باشا الشلالى الذى كان حاكما على بحر الغزال(١١٥)، كذلك فإن إبراهيم فوزى باشا ذات الدور الكبير فى إدارة جنوب السودان، والذى حاول خلق علاقات مصرية مع "إمتيسا" ملك أوغنده اتهمه غوردون بأنه يتاجر فى الرق، مما أغضب عليه الخديو، ولكنه ظل وفيا لمصر حتى خلال حكم الدولة المهدية، مما هو خالد الذكر فى تاريخه فى السودان(١١٦). وفى إطار هذه السياسة غير المخلصة لمصر طلب غوردون من الحكومة الخديوية الموافقة على تعيين الدكتور أمين باشا (إدوارد شنيترز) كمدير للمديرية الاستوائية، وفردريك روسيه Rosset مديرا لدار فور ، وقد كان تاجرا

بالخرطوم . ووكيلا لقنصل ألمانيا ، و"جسى" مديرا لبحر الغزال لأنهم – فى رأيه – أقدر على كسر شوكة الدناقلة[١١٧] ، وحفظ النظام ، وهدد غوردون بالاستقالة إذا لم يلب الخديو طلبه وذكر فى تلغرافه إليه " وعدم إجابتنا فى ما نراه بحسب الأحوال يصير تعيين أحد خلافنا لإدارة هذه الجهات"[١١٨].

ولم يكن الخديو على استعداد لتلقى المزيد من هجوم إنجلترا عليه وعدم رضاها عنه باستبدال غوردون بحاكم آخر على السودان ، لذلك أرسل على الفور فى يوليو ١٨٧٨ أمرا تلغرافيا إلى حكمدار السودان غوردون يسمح له بأحقيته فى التعيين والفصل ، جاء فيه " قد رخصنا لكم فى رفت وتعيين من يتراءى لكم لزوم رفتهم وتعيينهم من مديرى ومأمورى جهات دارفور وخط الاستواء وبحر الغزال وشكا والرول فى مدة سنة واحدة كما رغبتم ، وأما إذا نظر لكم لزوم تعيين أحد من الأورباويين بالجهات المذكورة فلا بأس إنما لا يكون تعيينهم من الذين سبق لهم التوجه إلى السودان ولا الموجودين به وهكذا أطلقت يدى غوردون فى تعيين الأوربيين لذلك أصدر أوامر أخرى بتعيين شارل ريجوليه Riglolet الفرنسى مديرا على " داره " ثم خلفه سلاطين باشا النمساوى ، كما تم تعيين " إميليانى " الإيطالى مديرا على " كوبه " ، ثم خلف " ميسيداليا " Messedaglia سلفه فريدريك روسيه بعد وفاته فى إدارة دار فور ، ثم عين جيكلر الألمانى مفتشا عاما لتلغراف السودان ، ثم أصبح مديرا عاما لمصلحة الرقيق[١١٩].

ومع أن إسماعيل قد ترك لغوردون الحبل على الغارب فى تعيين الأوربيين إلا أنه كان دائما ما يرسل إليه بالتوجيهات والنصائح التى يستخدمها لمصلحة أهل السودان ، ففى خطاب له يقول " من الضرورى أن تصطنع جميع وسائل اللين والإقناع لتكسب مودة الأهالى ... لتوفير أسباب التقدم والرفاهية والحضارة فى هذه البلاد النائية "[١٢٠] إلا أن غوردون فعل عكس ذلك واستخدم كل وسائل العنف فى معاملة الأهالى ومنع تجارة العبيد.

وعلى كل حال فقد بسط الخديو إسماعيل أيدى الأجانب على شئون السودان ومديرياته الجنوبية والغربية بل وعلى السودان كله حسب توصيات غوردون ، وذلك بإصدار الأوامر بتعيين الكثير من الأوربيين، وأسبغ الخديو على هؤلاء الأجانب الرتب والألقاب، ومنحهم المرتبات والمكافئات التى أرهقت ميزانيته[١٢١]، ومن جانب آخر اشتط غوردون – وكما سبق أن أشرنا – ومعه هؤلاء الضباط والحكام الأجانب فى مطاردة تجار الرقيق حيث صادروا منهم

الرقيق، وفرضوا الغرامات عليهم وأداروا الحـــروب ضدهـــم وضـــد أهـــالى السودان.

وبعد أن انتقل الزبير بأمر الخديو إلى القاهرة، وزادت هجمات غـوردون ومن ولاهم إدارة أقاليم دارفور وكردفان وبحر الغزال على تجار الرق، وقلـص غوردون من مكان سليمان ابن الزبير وجعله محدود النفوذ مما أثـــاره وجعلـه يعلن الثورة ويستولى على أماكن تابعة للحكومة فى بحر الغزال التى كانت تابعة له ولوالده من قبل، وكانت هناك شكوى لدى غوردون بأن ثورة ســـليمان قـد قررها والده فى القاهرة، وأرسل غوردون حملة بقيادة الإيطالى "روملو جيسـى" الذى كان يعرف المنطقة جيدا ويتميز ببرود الأعصاب ، وقوة التنظيم ، والحسم فى إصدار القرارات، ولقد تمكن "جيسى" بقوة محدودة لا تزيد أول الأمر عـــن ٢٤٠٠ جندى وضابط وبعدد محدود من المدافع من ضرب قوات سليمان التـــى كانت تزيد عن ١٠,٠٠٠ رجل مسلح، مما اضطر سليمان إلى اســـتثارة تجـار الرقيق والاستعانة بهارون الثائر فى غرب السودان[١٢٢] فلما علم غوردون بذلك قرر التحرك بنفسه إلى منطقة "شكا" نقطة التمركز بالنسبة لسيمان وعش العبيـد وملتقى الثوار من نواحى دارفور ، وطلب غوردون من ميسيداليا فى دارفـــور جمع ما يمكنه جمعه من القوات والأسلحة وإرسالها إلى جيسى فـــى مواجهـة القوات الكبيرة التى تجمعت لدى سليمان الذى تعاطف معه أهالى الإقليم باعتباره المحرر لهم من ظلم الإدارة ، وفى الوقت الذى كان يقوم فيه جيسى بمطـــاردة سليمان وقواته فى بحر الغزال كان غوردون يقوم بمهاجمة تجار الرقيق الواحـد تلو الواحد فى جنوب دارفور ، متجها نحو شكا مركز قوة سليمان ، وقد حـــاول سليمان وهارون وقواتهما تطويق جيوش الحكومة بقيـــادة جيســـى إلا أن هـــذا الأخير قد تمكن من شن هجوم سريع مفاجئ فحقق الانتصار الساحق على قوات سليمان الذى اضطراهم اضطر سليمان وعشرة من قادة جيوشه إلى الاستســـلام لجيسى الذى كانت لديه أوامر بإعدامهم ، فأعدمهم رميا بالرصـــــاص، وهكـــذا أسقط غوردون البقية الباقية من القوات المناوئة له ، وقضى على سيطرة تجـار الرقيق، وهنا فكر فى الاستقالة من منصبه حاكما عاما على السودان[١٢٣].

وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن مهمة غوردون لم تكـــن تحســـين إدارة السودان أو إصلاح أحوالـــه أو تطويـــر أوضـــاع ســـكانه الاقتصاديـــة والاجتماعية، إنما كانت مهمته تصفية عمليـــة الاســـترقاق، وضـــرب تجـــار الرقيـــق، والتخلص من الزعامات الشعبية فى السودان، مثل الزبـــير رحمـــت

الذى خدم الحكومة ثم استدعى إلى القاهرة، وهارون ثم سليمان الـــذى أعـــدم، وترك غوردون للسودان يموج بالثورة.

وبلغت حالة القلق فى السودان مراحلها الحاسمة عندما أنـــهى غـــوردون حكمداريته بأن طلب من الخديو القبض على الزبير نفســـه ومصـــادرة أمتعتـــه وأمواله ، واعتقال أقاربه وأتباعه[١٢٤] بحجة أنه قد أرسل رسالة إلى ابنه سليمان يحضه على الثورة ، ومن المحتمل أن ذلك لم يحدث كما ذكر الزبير نفسه الـذى طلب من غوردون في مقابلة معه إحضار هذه الرسالة ولكن اتضـــح أن هـــذه الوثيقة غير موجودة[١٢٥] وكانت الطامة الكبرى على إدارة حكومـــة الســـودان عندما غدر جيسى بسليمان بن الزبير – كما أشرنا –هو ورجاله ، الذين قبلـــوا الاستسلام وإيقاف الثورة ، ولكنه أعدمهم رميا بالرصـــاص طبقـــا لتعليمـــات غوردون الذى بنى حكمه عليهم على سند غير موجود أصلا ، وكان لهذا القتـــل المتعمد والظالم أثره فى إيغار قلب الزبير وأتباعـــه وأقاربـــه وحتـــى الشـــعب السودانى ضد غوردون والأوربيين والحكومة التى تشغلهم[١٢٦].

ثم أوصت الحكومة البريطانية بإقالة عبد القادر حلمى باشا من حكمداريـة السودان بحجة أنه كان يحاول فصل السودان عن مصر حيث جاء علاء الديـــن حكمدارا متواضعا ومعه هكس قائدا للجيوش المصرية المواجهة للمهديين فـــهلك هكس وجنوده .

والحقيقة أن تدخل الأوربيين فى شئون الحكم وســـيطرتهم الكاملـــة علـــى أحوال السودان وخاصة أنهم لم يكونوا صادقى النيـــة قـــد أثـــار روح الحقـــد والكراهية من جانب القبائل السودانية، وألقى المهدى "تبعة المظالم والمصـــائب على عاتق الحكومة المصرية لأنها هى التى استخدمت أولئك الأجانب والدخـــلاء وولتهم أمور العباد، فحكموا سيوفهم فى رقابهم وأتوا ما أتوه من الظلـــم وقتـــل النفوس وفتك الأعراض، وكان من الواجـــب أن تتجســـس أعمالـــهم وتتنســـم أخبارهم، حاسبة السودان عضوا من أعضائها يؤلمها ما يؤلمه، ولكنها أهملـــت هذا الواجب، وكان إهمالها دليلا على تركها مقادير السودان تجرى فى أعنتـــها" إذن ليس بدعا – على حد قول محمد أحمد المهدى ذاته – انتفاض أهل الســـودان عليها (أى على الحكومة التركية المصرية) بل البدع والغرابة ألا ينتفضوا"[١٢٧].

ولقد كان غوردون – أخطر من أدار شئون السودان من الأوربيـــن قبـــل إخلائه ١٨٨٤ – يتميز بطابعه المسيحى المتزمت المتأثر برواســـب المـــاضى

وكان معاونوه من الأجانب رجال لهم نظرتهم الخاصة فى معاملة الأهالى الذين كانوا يرون أنهم فى مستوى دون مستوى الأوروبى، وأن للأوروبيين رسالة يتحتم على السكان قبولها فاندفعوا في تشديدهم وصرامتهم اندفاعا كان من نتيجته خلق روح التذمر، وتوالت الأحداث على اختلاف صورها، وألوانها مما زاد حالة القلق التى جعلت السكان يتطلعون إلى من يخلصهم من محنتهم التى امتدت إلى الدين وهدمت معها أركان الحياة بنشاطاتها الاقتصادية، ولم تكن الحرية التى نادى بها غوردون وأعوانه فلا تمهيدا لخروج المجتمع عن قيمه الدينية، وأن يتقبل التبشير بالمسيحية فى حالة تمكن المدنية الأوربية من تثبيت أقدامها، والسيطرة على مصير بلاد السودان، وحتى كل أفريقيا لقد كان تشغيل الأجانب خاصة الإنجليز سببا مباشرا لقيام ونجاح الثورة المهدية الذى كان هدفها الأول التخلص من تلك العناصر المتعصبة والعنيفة وغير المخلصة.

حول أحداث الثورة المهدية والسياسة البريطانية

احتلال مصر والثورة المهدية:

تم احتلال مصر فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ وكان ضمن سياسة بريطانيا التى فرضتها على البلاد قيام الحكومة الجديدة بإصدار مرسوم بعد خمسة أيام فقط من الاحتلال بإلغاء الجيش المصرى، وفى يناير ١٨٨٣ تم تعيين "إيفلن وود" قائداً عاماً للجيش المصرى الجديد الذى عهد بتنظيمه إلى إنجليزي آخر هو "فالنتين بيكر Valentine Baker" مع إدخال ٢٥ ضابطا إنجليزيا فيه، وتحديد عدده بـ ٦٠٠٠ جندى فقط، وصدرت الأحكام على كبار الضباط العرابيين والمتعاونين معهم من المدنيين بالنفى أو السجن أو التجريد من الرتب، أو الحرمان من جميع الامتيازات، وبالطبع فقد ضعفت الروح المعنوية للجيش بعد تقليص عدده ومحاكمة قواده.

وبعد واقعة الشلالى فى مايو ١٨٨٢ التى هزم فيها المهديون الحكومة السودانية – حيث سارت الأحوال فى السودان من سئ إلى أسوأ – قبيل الاحتلال و كان عرابى لازال وزيرا للحربية ، طلب حكمدار السودان عبد القادر حلمى مددا من الجند و ٥٠٠٠ بندقية، ووافق العرابيون على إرسال البنادق ، دون إرسال العساكر بسبب حرج موقفهم فى مواجهة الإنجليز، وتمكن عبد القادر من إرسال إمدادات إلى مدير كردفان محمد سعيد حتى أمكنه هزيمة المهديين فى بارة فى ١٧ يونيه ١٨٨٢ وظهر كأن الموقف قد بدأ

يتحسن فى صالح حكومة السودان ، ولكن لم يلبث المهديون أن قاموا بحصار مدينة الأبيض أهم مدن الغرب ، ومع ذلك أوقع بهم محمد سعيد هزيمة أخرى فى الأبيض ، وطلب النجدة من الخرطوم ، فوصلته إمدادات محدودة ولكن المهديين تمكنوا من هزيمة هذه القوة ودخلوا " بارة " ولما وجدت حامية الأبيض بقيادة محمد سعد أن من العبث الاستمرار فى المقاومة سلمت المدينة فى ١٩ يناير ١٨٨٣ وتم قتل محمد سعيد باشا ومن معه ، وكان من أسباب تسليم الحامية وصول الأخبار بانتشار الثورة فى سنار[١٢٨] ، ولذلك قرر عبد القادر حلمى قيادة العمليات العسكرية بنفسه ، وهزم ثوار الجزيرة بزعامة أحمد المكاشفى عند (مشرع الداعى) فى ٢٤ فبراير ١٨٨٣ ، ودخل سنار ، وحقق انتصارا آخر على المكاشفى قرب الرصيرص فى ٢٦ مارس ١٨٨٣[١٢٩] ، ولكن هذه الانتصارات لم تكن فاصلة ، فقد استعاد المهديون تلك المناطق بقوات إضافية فى الوقت الذى سقطت تحت أيديهم حاميات كردفان ، وكان عبد القادر يطلب بشكل دائم من القاهرة إرسال النجدات مبينا خطورة موقفه فى السودان وعجز ما لديه من قوات عن مواجهة قوة المهديين التى كانت تقدر بحوالى ١٥٠ ألف مقاتل ، والتى حققت انتصارات عديدة ، فى حين كانت قوات عبد القادر محدودة وغير مدربة ، وغير مخلصة ، ومجمعة من جنود إما غير نظامية (الباشبزوق) أو نظامية من السودانيين غير الموثوق بهم إضافة إلى الجنود المصريين ، وحاولت حكومة الاحتلال إنقاذ ما يمكن إنقاذه فجمعت قوة من جيش عرابى المنحل ، وتم تدريبها على عجل فى القناطر الخيرية ، وأرسلت إلى الخرطوم أواخر سنة ١٨٨٢ .

إقالة عبد القادر حلمى وتعيين هكس:

فى الوقت الذى كان فيه عبد القادر حلمى قد أصابه اليأس، طلب فى ١٤ ديسمبر ١٨٨٢ إعفاءه من الخدمة لإحساسه بعدم إمكانية إنجاز أى انتصار على المهديين فى ضوء الإمكانات المحدودة التى لديه، فرفض الخديو إعفاءه ولكن لم تمض أيام قلائل على هذا الرفض حتى أصدر الخديو تعليماته باستدعاء عبد القادر حلمى، وتم تعيين علاء الدين الذى كان حاكما على شرق السودان حكمدارا عام للسودان، وكان من ضمن التغيير الذى وقع أيضا تقليص عمل علاء الدين فى الوظائف الإدارية والمدنية فقط، بينما يمارس وظائف "الحكمدار" العسكرية، قومندان عام ووقع الاختيار على سليمان باشا نيازى لملئ هذا المنصب ثم تعين هكس – وهو بريطانى – رئاسة الأركان بل أن صراعا نشأ

بين هكس وسليمان نيازى على قيادة قوات الجيش فى السودان، وقيادة الحملة الموجهة لضرب المهديين فى الأبيض، وانتهى الصراع بأن أصدر الخديو قرارا بأن يكون هكس هو القائد العام على هذه الحملة وليس سليمان نيازى، حيث وصل إلى الخرطوم فى ٧ مارس ١٨٨٣، ويذهب كثيرون إلى أن عبد القادر حلمى باشا كان هو الشخص الوحيد الذى كان بإمكانه إخماد ثورة المهدى إذا ما تم دعمه ببعض القوة، والحقيقة أن تعيين هكس على رأس الحملة العسكرية وقيادة الجيوش كان معناه أنه اصبح صاحب الكلمة النافذة فى السودان فى وقت كانت البلاد فيه فى حالة حرب وثورة إسلامية، وكان استدعاء عبدالقادر حلمى فى الواقع دسيسة من الإنجليز الذين أرادوا للثورة أن تستفحل حتى يضيع السودان[١٣٠]، وقبل أن يخرج عبد القادر حلمى من حكمداريته كان قد تم اتهامه من قبل الإنجليز بأنه سعى إلى فصل السودان عن مصر، وإلحاقه بالباب العالى مباشرة[١٣١].

ونصحت بريطانيا بإرسال الكولونيل استيوارت فى أواخر ١٨٨٢ وحتى بدايات ١٨٨٣ لوضع تقرير عن أحوال السودان يفيد فى التوصية بما يجب اتخاذه من سياسة فى السودان ،وقد أجرى اتصالات واسعة فى الخرطوم وشرق السودان ، ويرى الشاطر بصيلى أنه كان يهدف لتحريض الأهالى على الانشقاق والعصيان على الحكومة المصرية التركية ، وعلى الرغم من أن الخديو توفيق كان يتوقع من استيوارت وهكس وزملائهم من الإنجليز العمل ضد مصلحة مصر فإنه لم يكن قادرا بعد الاحتلال على اتخاذ إجراءات تحول دون تنفيذ سياسة الإنجليز ، وطلب توفيق فقط من حكمداره الجديد على السودان وقتها علاء الدين باشا مراقبة تحركات استيوارت وهكس ومعاونيهم من الأوربيين الرسمية منها و غير الرسمية ، وهنا يبرز اسم الرحالة " شوبر" الهولندى الجنسية الذى أمضى بعض الوقت فى إنجلترا ثم ذهب إلى السودان (١٨٨٢) وطاف فى النيل الأزرق ، ودارفنج ،وبحر الغزال ، وأم درمان، والنيل الأبيض، وهى مناطق صالحة وقتها لغرس أفكاره ، وذكر الشيخ محمود قبانى فى مقال بهذا الخصوص قال: "أصبحنا يوما وإذا الشوارع مملوءة بأوراق كأوراق "الدعوة" إلى الأعراس مكتوب عليها باللغة العربية والإنكليزية والفرنسية، يا أهل السودان عموما وأهل الخرطوم خصوصا قد استولت حكومتنا البريطانية على حكومتكم المصرية فاطلبوا الحرية " وقد وقع على هذه الأوراق رجال بريطانيا العظمى فارتاعت حكومة السودان لذلك وبثت الجواسيس فتم

الإمساك بخادم بربرى وهوجم منزله حيث عثر فيه على خمسة صناديق مشحونة من هذه الأوراق وعليها ختم لندن ، ومصر ، والخرطوم أتت لسائح يدعى "مستر شوبر" وعند مسائلة الخادم السودانى أجاب بأن ٥٠ صندوقا مملوءة بهذه الأوراق وصلت إلى سيده وزعها على جهات السودان المختلفة ، ولما استدعت الحكومة السائح لاستجوابه منعها القنصل الإنجليزي فسكتت الحكومة، ويذكر الشيخ محمود القبانى أن هؤلاء ومعهم سياح من الإنجليز كانوا يتصلون بالأهالى وخاصة فى الخرطوم ويتحدثون معهم عن عطف بريطانيا عليهم ، وأن جلالة الملكة (فكتوريا) حزينة لما أصاب البلاد من البلاء لذا فهى تسعى إلى إعطاء السودان حريته والانفصال عن حكومة الخديو المصرية[١٣٢].

ولقد كان تعيين هكس على رأس حملة عسكرية ضد ثورة إسلامية خطأ كبير اعترف به "إدوارت مالت" قنصل بريطانيا العام فى مصر بعد الاحتلال[١٣٣].

وحينما توجه هكس بحملته لإنقاذ السودان وقع فى خطأ فادح حين تصور أن القوة التى تحت قيادته كافية لضرب المهديين، ويبدو ذلك بوضوح فى البرقية التى أرسلها إلى الجنرال بيكر من الخرطوم فى ١٨ يونيه سنة ١٨٨٣ والتى اعترف فيها بأنه لا يرى احتمالا لوقوع أية نكبة، والواقع أن النكبة كانت قادمة لا محالة، فقد كانت القوة التى توفرت لهكس قد تم جمعها على عجل من قوات غير نظامية، ومن قوات جيش منحلة وجائعة وبائسة، وتم جمعها بالقوة وهى مكبلة بالسلاسل، وعددها لا يتجاوز ١١,٠٠٠ جندى و٦٠٠٠ آلاف من الجمال والخيول، وذهبت هذه القوة لكى تواجه قوة تتجاوز ٤٠ ألف مقاتل مسلح وربما تزيد عن ذلك بالآلاف فى بعض التقديرات، والواقع أن هكس كان يجهل طبيعة أرض السودان جهلا تاما، فساق جيشه فى فيافى كردفان مخالفا الآراء التى أبداها العارفون بأحوال تلك الجهات مثل عبدالقادر حلمى، والكولونيل ستيوارت مما أدى إلى هلاكه هو وجيشه فى موقعة شيكان[١٣٤]، واستفحال الثورة حتى أصبح الطريق مفتوحا أمام المهديين نحو الخرطوم.

ولما بلغ حكومة الاحتلال فى مصر نبأ هلاك هكس وجنوده ارتبكت وأمرت بجلاء حاميات الدويم والكوة وفاشودة ، وسنار (على النيل الأزرق بشرق السودان) لتعزيز حامية الخرطوم حتى تصير قادرة على حفظ خطوط الرجوع إلى مصر إذا ما اضطرت إلى إخلاء الخرطوم والسودان[١٣٥].

وعقب تلك المعارك الكبيرة التى انتصرت فيها قوات المهدى، أعلن الإمام الاعتكاف فى العشر الأواخر من شهر رمضان سنة ١٣٠١ هـ ولم يخرج إلا لصلاة العيد الذى أعلن فيه أن النبى(ص) أمره بالتقدم إلى الخرطوم ووعده بالفوز على من فيها وبشره بفتحها ، فقرر مغادرة منطقة الرهد والزحف بجيوشه كسيل العرم ، وكانت قواته تبلغ حوالى الستمائة ألف مقاتل ، فسار نحو الخرطوم رغم الصعوبات التى قابلته[١٣٦].

وبعد تلك التطورات الخطيرة كان من رأى " استيورات " الذى وضع تقريره عن السودان والخرطوم عام ١٨٨٣ ، أن تحاول الحكومة المصرية توطيد سلطانها فى الأقاليم التى بقيت تحت حوزتها ، بينما كان من رأى "لورد دوفرن " أن تتخلى مصر عن دارفور وجزء من كردفان مع الاحتفاظ بسلطانها فى الخرطوم وسنار ،ويقول " السير أوكلانت كلفن " أن دوفرن عندما كتب تقريره كان الرأى السائد أن مصر لن توافق على سياسة الإخلاء، وأدركت الحكومة البريطانية هذه الحقيقة ، ولذلك فإنه عندما قررت الحكومة المصرية إرسال الجنرال هكس لقتال المهدى امتنعت وزارة جلادستون عن التدخل فى ذلك الأمر رغم أن استيوارت ودوفرن كانا يعتبران إرسال هكس دون إتمام الاستعدادات اللازمة ضربا من الجنون ، وجدير بالملاحظة أن بريطانيا إضافة إلى المعلومات التى لديها وتقارير استيوارت وغيره أرسلت إلى عرابى فى منفاه فى " سرنديب " – باعتباره كان وزيرا للحربية المصرية قبل الاحتلال اثنين من اللوردات الإنجليز هما اللورد روزبرى واللورد ماكدونالد لاستطلاع رأيه فى حركة المهدى السودانى ، وعما إذا كان جيش قوته عشرون ألفا بقيادة هكس كافية للتغلب على المهدى فرد عرابى : "نحن نرى أن وجود قائد إنجليزي على رأس جيش يكون فى صالح المهدى ، فإنه يحكم بكفر المصريين الذين يقاتلون المسلمين تحت قيادة مسيحية ويستبيح قتلهم بسبب هذه القيادة " ونصح عرابى بأن تقيم مصر المهدى أميرا على السودان تحت التاج المصرى ، وتنبأ عرابى باندحار حملة هكس ، وكان من أثر السياسة البريطانية السلبية – على حد قول كرومر فيما بعد – سيئة النية وغير المخلصة لمصر ، أن تمت هزيمة هكس كخطوة أدت إلى ضياع السودان ، فعلى الرغم من وفرة المعلومات لدى بريطانيا تركت السودان لمصيره وتركت هكس يتلقى هزيمة نكراء فى شيكان[١٣٧] ثم بعد ذلك أشار "جلادستون" رئيس الوزراء البريطانى على مصر بإخلاء السودان كله ، حرصا على أمن مصر – حسب التعبير البريطانى –

ولأن مصر كانت فى حالة مالية لا تسمح لـها بإرسـال حملـة أخـرى إلـى السودان[١٣٨] ، والسؤال الذى يطرح نفسه هنا ، ما هو سبب الأزمة المالية فـى مصر ؟ أليست بريطانيا هى التى أغرقت مصر فى مستنقع الأزمة الذى انتـهى بفرض سيطرتها على اقتصاد مصر وماليتها ثم احتلالها .

غوردون وحملة الإخلاء الفاشلة:

بعد هذه النهاية المؤسفة لحملة هكس وقتله ومن معه وقـرار الحكومـة البريطانية – الذى فرض على الحكومة المصرية رغم أنف رئيس وزرائـها – بإخلاء السودان رأى السياسيون فى بريطانيا اختيار غـوردون لـهذه المهمـة الشائكة ، وصرح غوردون – الذى تولى حملة الإخلاء – فى مذكراته بقولـه : "أرى أن حكومة جلالة الملكة قد عقدت النية على ألا تأخذ على عهدتها المهمـة الكثيرة الصعوبة التى غايتها وضع حكومة منتظمة لأمم السودان ، وأنها بـدلا من ذلك صممت أن ترد إلى هذه الأمـم حريتـها ، وأن لا تسـمح للحكومـة المصرية بالتدخل فى شئونها " وقد أعلنت بريطانيا ذلك فى برلمانها حيث كـان غرضها أن يمهد غوردون لوقوع بلاد السودان فى يد القـوات المهديـة ، وأن تسير فى سبيل الفوضى والضياع، وبعبارة أخرى أن تقضى على نفوذ مصـر الذى كان واسعا فى تلك الأرجاء[١٣٩].

وأوصت بريطانيا بضرورة إخلاء السودان ، ولما رفض رئيـس وزراء مصر قرار الإخلاء أبرق لورد جرانفيل وزير الخارجية الإنجليزي إلى قنصـل بريطانيا فى مصر " سير إفيلن بارنج " فى ٤ يناير ١٨٨٤ بما يفيـد اسـتعداد حكومته لتعيين وزراء إنجليز يقبلون سياسة إخلاء السودان إذا تعـذر وجـود مصريين يقبلون ذلك ، وتولت وزارة أخرى حكم مصر كان يرأسها نوبار باشـا الأرمنى لتقبل بسياسة الإخلاء[١٤٠].

والواقع أنه قد حدث تردد فى الأوساط السياسية البريطانية إزاء من الـذى يتولى عملية إخلاء السودان ، هل يتم تكليف غوردون أو يتم إرسال بديل آخـر مثل ليفتنانت كولونيل استيوارت الذى كانت له خبرة بالسودان من خلال وضـع تقريره عنه ، أو أن يتم إرسال غوردون وبرفقته استيوارت ، وهذا ما تم بالفعل وكان غوردون يقدم على مهمة لا يعلم تفاصيلها ، ولا يـدرك العقبـات التـى تنتظره فيها[١٤١] وكان ضمن تعليمات بريطانيا له قبل مبارحته لندن " إنك سوف تكون خاضعا لتعليمات معتمد جلالة الملكة وقنصلها العام فى مصر ، وعليك أن

تعلم أنه قد خول لك (أن) تكلف بالقيام بمأموريات أخرى ، كما ترى الحكومة المصرية ، والتى يجب أن ترسل إليك عن طريق السير إفلن بارنج ولقد صيغت التعليمات بعناية ،ولم يذكر فيها أن إنجلترا ترتب للإخلاء ، إنما جاءت مسألة الإخلاء فى شكل توصيات يوجهها سير إفلن بارنج إلى الخديو، الذى يقوم بدوره بإصدار تعليمات الإخلاء لغوردون حتى تخفى بريطانيا دورها قدر ما تستطيع ، أى أن مهمة غوردون وكما خططت لها بريطانيا كانت مهمة سلمية فقط ، فقد كانت القوة الموجودة بالخرطوم محدودة بالقياس إلى قوة المهدى الرهيبة المحاصرة لها ، وفى الوقت نفسه تمكن الجناح الشرقى لقوات المهديين من سحق كل قوة أتت من جانب الحكومة أو حتى بعض الوحدات الإنجليزية التى جاءت من البحر الأحمر ، فالقوة التى أرسلت إلى طوكر فى ٦ نوفمبر ١٨٨٣ قام عثمان دقنة اليد اليمنى للمهدى بتدميرها وقتل الكابتن مونكريف Moncrieff القنصل الإنجليزي فى سواكن ، والمحاولة التى جرت لإنقاذ مدينة "سنكات" باءت بالفشل وقتل ما يقرب من ٧٦٠ جندى من أصل حملة قوامها ٨٠٠ جندى، وفى فبراير ١٨٨٤ سقطت مدينة طوكر ، ولما حاولت حامية سنكات بقيادة توفيق بك القيام بهجوم مفاجئ ضد المهديين بقوة مقدارها ٣٧٠٠ جندى لقت مذبحة وحشية قتل فيها ٢٣٠٠ رجلا من هذه القوة ،وفى ١٣ مارس ١٨٨٤ تقدمت قوة للاستيلاء على معسكر عثمان دقنة فى منطقة " التيب " فقام المهديون بهجوم مضاد بقيادة عثمان دقنة على القوات التركية المصرية ، التى انسحبت ولم ينقذها سوى وصول القوات البريطانية تحت قيادة جراهام غير أن قواته انسحبت هى الأخرى بعد ذلك ، وعلى كل حال فقد هزمت قوات الحكومة فى شرق السودان هزيمة ساحقة ، وفى هذا الوقت كان المهدى يجهز للزحف على الخرطوم ، بينما كان غوردون يقطع صحراء العطمور وهو يقود حملة الإخلاء(١٤٢).

وبالنسبة إلى حملة الإخلاء بقيادة جنرال غوردون والمتوجهة من القاهرة نحو الخرطوم عن طريق حلفا ، وذكر " جراهام " الذى رافق الحملة حتى كروسكو أن غوردون كان يتصرف تصرفات متناقضة ، الأمر الذى جعل جراهام يتخيل أنه فى صحبة رجل حكم عليه بالموت ، فهو تارة يتحدث عن الأماكن المقدسة ، وأخرى عن جوز الهند ، ثم ينتقل إلى مشروعاته المستقبلة الرامية إلى إعطاء جنوب السودان (مديريتى خط الاستواء وبحر الغزال) إلى ملك البلجيك ، حيث كان يدور برأسه أن يقوم هذا الملك بضم الجنوب بما فيه

من القوات المصرية والسودانية لمستعمرة الكنغو ، وأن يقوم بتعيين غـــوردون لإدارة تلك المناطق، ولم تكن الحكومة البريطانية مقتنعة بهذه الفكرة .

ومن جانبه أرسل المهدى عماله وممثليه إلى المدن الشمالية القائمة علـــى نهر النيل لمراقبة غوردون ومتابعة قدومه للخرطوم ، ويكتـــب اللـــواء محمـــد نصحى باشا – عندما كان فى شندى منتظرا حملة الإخلاء – فـــى " جورنـــال الحوادث " مقالا تضمن نصا من الكتاب الذى وجهه أمراء المهدية إليه فى هـــذا الوقت جاء فيه " لا يليق بأيمانكم أن تجعلوا أمامكم الغوردون الكـــافر الـــذى لا شبهة فى كفره ، وأنتم مغرورون به ، ومنتظرون المدد من الإنجليز، وهم أعداء الله ورسوله وأعداء المؤمنين مع علمكم ببعدهم عنكم ...ويـــا حضـــرة الباشـــا ومعشر الضباط والعساكر إن كنتم من بر مصر فتذكروا عدوان الإنجليز عليكم، وما جرى لعرابى معهم وتملكهم على بلادكم"(١٤٣).

ولم يدرك غوردون حقيقة الأوضاع فى السودان، والمصيبة الكـــبرى أنـــه صرح وهو فى مدينة بربر فى طريقه إلى الخرطوم فـــى ١٢ فـــبراير ١٨٨٤ عندما سأله أعيان المنطقة الشمالية وفى وسطهم حسين خليفة باشا حاكم الإقليـــم بخصوص معاهدة الرق ١٨٧٧ ومدى سريانها فى السودان قال: "إنها لا تسرى على السودان بسبب أنه صار فى طريق الانفصال عـــن مصـــر" ممـــا جعـــل غوردون يفقد تأييد أية قوة كانت لازالت متمسكة بالحكومة الشـــرعية للبـــلاد، بالعكس فإن الفصائل والجماعات السودانية المختلفة لجأت إلى المهدى الذى كان الطريق مفتوحا أمامه نحو الخرطوم، بل ولقد شجع هذا الوضع المـــهدى ذاتـــه على الحكم مقدما على غوردون وحملته بالفشل بما فى ذلك خطته لفصل جنوب السودان ومنع ارتباطه بالشمال وضمه للكنغو وجعل تجارته مع أوغندا والمحيط الهندى، فى الوقت الذى ينسحب غودرون نفسه إلى الجنـــوب، ويـــترك إدارة دارفور للإمام المهدى ويولى آخرين على مناطق السودان القبلية الأخرى. ولقـد جر غوردون بتصرفاته هذه التى كانت تتقصها الكياسة إلى تشـــجيع عنـــاصر الفوضى، ووضع العراقيل فى طريقه، عكس ما كان ينتظره من مؤازة الأهـــالى له، وتبين لنا هذه التصرفات مدى الخطأ الذى ارتكبه ودفع ثمنه عندما أعلن مـــا فى قرارة نفسه مقدما – بإنهاء الوجود المصرى فى السودان – منذ أن وطئـــت أقدامه أرض السودان(١٤٤)، لقد كشف خطته للمهدى فعمل على إفشالها وتصـــدى له ووضع نهاية مأساوية لحملته، الواقع أن خطة غوردون وتصرفاتـــه كـــانت تكشف التردد والتناقض كما يبدو فى خطابه للمهدى وهـــو فـــى طريقـــه إلـــى

الخرطوم يقول له: "أنى قد تعينت واليا على السودان باتفاق كل من الحكومة الخديوية ودولة بريطانيا لتسوية حال السودان... وغاية ما نريده الآن من جنابكم يا حضرة السيد أنه باتفاقنا سويا ننظر ما فيه حقن دماء المسلمين وسلوك الطرق ومداولة المواصلات بيننا وبينكم بغاية المحبة" ودعى غوردون المهدى لفك إسار الأسرى، ثم قال له: "وإن كان حضرتكم تريد أن تكون سلطانا على كردفان فقد أعطيناها لك لتكون سلطانا وأميرا عليها"[١٤٥] فرد عليه المهدى بخطاب ذكر فيه أنه أرسل ببرقية من أبا إلى حكمدار الخرطوم يبلغه بأنه المهدى المنتظر من عند الله، ولكنه لم يعترف بذلك وقد ندم الحكمدار وقواته على ما لاقوه من هزيمة من عند الله، ودعى غوردون إلى الدخول فى الملة المحمدية وذكره أنه المهدى المنتظر، خليفة رسول الله وقال له "لا حاجة لى بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا غيرها ولا فى مال الدنيا ولا زخرفها". وأخيرا قال له "فإن اهتديت وسلمت لى واتبعتنى حزت شرف الدنيا والآخرة، وفزت بأجرك وبأجر جميع من أتبعك وإلا هلكت وكان عليك إثمك وإثم جميع من اتبعك"[١٤٦] ومن المؤكد أن المهدى قد لاحظ التناقض لدى غوردون، فكيف بعد أن أعلن فى بربر مجيئه لإخلاء البلاد يرسل للمهدى خطابا توليه على كردفان، ويرفض المهدى بالطبع لأنه لم يكن بحاجة إلى قرار غوردون لكى يكون سلطانا على كردفان أو دارفور وغيرهما من مناطق غرب السودان التى كانت بالفعل تحت يده.

وما كاد نبأ قدوم غوردون يبلغ الخرطوم حتى فرح المصريون القائمون فيها فرحا شديدا ظنا أنه لابد قادم بقوة معضدة من الحكومتين البريطانية والمصرية تكفى لردع المهدى وإرغامه على التراجع ومنعه من التقدم إلى الخرطوم وقتل من فيها ، ووصل غوردون إلى الخرطوم فى ١٨ فبراير ١٨٨٤ بقوة غير قادرة حتى على تأمين انسحاب المصريين والقوات العسكرية المرابطة فى العاصمة ، ولذلك أرسل إلى الحكومة البريطانية مقترحا إرسال قوات إنجليزية أو قوات مصرية تركية لإنقاذه[١٤٧].

سقوط الخرطوم ومقتل غوردون:

وتقدمت قوات المهدى نحو مدينة الخرطوم وبدأت فى حصارها فى شهر إبريل ١٨٨٤، واستدعى غوردون قناصل الدول فى هذا الوقت عندما تحرج الموقف ومعهم أعيان النزلاء الأوربيين وعقد معهم مجلسا فى سراى الحاكم العام، وتم الاتفاق خلال الاجتماع على انتداب إبراهيم فوزى باشا لمرافقتهم لكى يبرحوا الخرطوم على باخرة صغيرة اسمها "محمد على" لكى يلحقوا بمديرية

خط الاستواء أو بالمتمة لمقابلة الجنود الإنجليز القادمين لإنقاذ غوردون[١٤٨].

وازداد حماس المهديين فى حصارهم عندما بلغهم نبأ غزو شرق السودان فى مارس ١٨٨٤ بحملة هدفها إنقاذ الخرطوم وكان هذا الهجوم المضاد من جانب القوات البريطانية فى شرق السودان ذات تأثير إيجابى لتقوية روح الكفاح عند أنصار المهدى حتى سقوط الخرطوم[١٤٩].

وسارت الأمور عكس ما تمنى غوردون – الذى اقترح على الحكومة البريطانية الانسحاب إلى خط الاستواء[١٥٠] مع ترك مسئولية إخلاء الحاميات المصرية فى وسط وشمال السودان – وبدأت الأحداث تسير نحو عزله فى الخرطوم التى أحاط بها الثوار ، وكانوا قد استولوا على بحر الغزال فى إبريل ١٨٨٤ ، كما تم لهم الاستيلاء على بربر التى كانت فى موقع مهم فى مفترق الطرق بين النيل والبحر الأحمر ، وبذلك أصبح غوردون محاصرا من كل جانب ، وقتما فشلت حملة الإنقاذ القادمة من شرق السودان[١٥١].

لقد تم للمهديين الاستيلاء على بربر كما أشرنا ولذلك فإن البعثة التى أرسلها غوردون إلى القاهرة ولندن لإنقاذه على ظهر الباخرة النيلية "عباس" تم أسر أفرادها وأولهم "استيوارت باشا" وبرفقته القنصل الفرنسى والقنصل الإنجليزي وأشخاص آخرين، وقتل المهديون إستيوارت ورفيقيه، وبعض الأشخاص الذين كانوا معه، وأرسل محمد أحمد المهدى بخطاب إلى غوردون فى الخرطوم أبلغه فيه بسقوط بعثة استيوارت ورجاله فى يد المهديين، وباستيلائه على كل ما فى الباخرة النيلية "عباس" من المراسلات والتقارير التى أرسل بها غوردون من الخرطوم المحاصرة إلى حكومة الخديو وإلى المسئولين الإنجليز، والتى عرف منها المهدى – كما أبلغ غوردون فى خطابه – عدد الأوربيين الموجودين فى الخرطوم وهو ٤٦ برتبة لواء ، و٢ برتبة كولونيل، ٥ برتبة ملازم ، وعدد ٢٣٧٠ جنديا من الباشا زوق، و٤٧٩٧ جندى من القوات النظامية، كما عرف المهدى مقدار المعدات العسكرية المتاحة لغوردون وهى محدودة، وأهما ١١ مدفع ميدان مع ٣١٥ طلقة فقط، ٥ مدافع هاون ومعها ٥٦٥ طلقة، ٢ مدفع رشاش أتوماتيكي بدون ذخيرة، ٧٠٦٤ بندقية ماركة Remington معها ١٥٠,٢٣٣ طلقة[١٥٢].

وعلى ذلك فقد علم المهدى – من خطابات وتلغرافات غودرون المستولى عليها – أن غوردون قد تكشف عند وصوله إلى الخرطوم عدم إمكانية سحب

القوات والموظفين المصريين والأوربيين بسبب سيطرة المهديين وحصارهم للخرطوم ، وقطعهم لطرق المواصلات مع القاهرة ، وأنه طلب من الخديو إرسال قوات عسكرية تدعمه ، أو إرسال قوات تركية لتولى الموقف فى السودان ، وطلب غوردون أن تكون القوات المرسلة تحت قيادة الزبير باشا ، وحذر بأنه إذا لم تصل قوة إنقاذ فإن القوات والأفراد الموجودين بالخرطوم سوف تذبح بكاملها ، خاصة وأن المؤونة التى لدى غوردون لا تكفى سوى لخمسة شهور فقط[١٥٣] ، ولقد استفاد المهدى أيما فائدة من المعلومات التى وصلته ، ولذلك فإنه لم يهاجم الخرطوم إلا بعد مرور خمسة شهور من تلغراف غوردون للخديو المؤرخ بأغسطس ١٨٨٤ أى بعد نفاذ كل ما لدى الخرطوم من مئونة ، أما مدينة أم درمان على الجانب الغربى لنهر النيل فقد حاصرتها القوات المهدية وقطعت وسائل الاتصال بينها وبين الخرطوم ، وحاول غوردون إنقاذ الموقف لكن دون جدوى ، ووضع للثوار لهم مواقع عسكرية حول أم درمان ، ورغم حرج الموقف حاول غوردون أن يشد من أزر فرج الله بك قائد حامية أم درمان ، فأبلغه أنه رغم استسلام " لبتون بك " مدير بحر الغزال ، ورغم الاستيلاء على الباخرة " عباس " وأسر كل من فيها بما فيهم استيوارت باشا فإنه لا يهتز ولا يهتم ، وأنه (أى غوردون) قابع كالأسد ، ولذلك لا تدع الموقف يضعف من عزيمتك " وأرسل غوردون بعد ذلك إلى سير بارنج القنصل الإنجليزي العام فى مصر يبلغه أن المؤن التى لديه تمكنه من الاستمرار لمدى ٤٠ يوما فقط ، وفى ديسمبر ١٨٨٤ ورد إلى غوردون إشارة من أم درمان تبلغه بأن المئونة والذخيرة قد نفذت لديهم ، وأن هناك محاولات للاستيلاء على أم درمان مما اضطر غوردون أن يأمر فرج الله باشا بالاستسلام لقوات المهدى، وبعد سقوط أم درمان أصبح وضع الخرطوم حرجا فقد أصبحت محاصرة من جميع الجهات، والطرق ولا صلة لها بالعالم الخارجى وكان غوردون فى حالة يائسة ، وتحولت مشاعر القلق لديه إلى حالة من البرود أشبه بالاستسلام للمصير المحتمل خاصة بعد أن انعدم وصول أية إمدادات عسكرية أو تموينية له، و تناقص أعداد حملته العسكرية وهروب الجند إلى معسكر المهديين ، ومع قرب نفاذ المؤونة والذخيرة[١٥٤].

ولما كان المهدى يعرف أحوال الخرطوم جيدا فقد عرض على غوردون شروط التسليم فرفض الأخير العرض لاعتقاده بوصول حملة لإنقاذه، ولكنها لم تصل ، ووهنت قوة كثير من رجال الحامية المصرية التى كانت فى المدينة،

خاصة خلال عملية اقتحامها[١٥٥]، فأصدر المهدى أمرا إلى قائد جيوش المهدية فى أم درمان حمدان أبى عنجة بإطلاق القنابل بشكل دائم على مدينة الخرطوم من عصر يوم الأحد، ربيع الثانى إلى ظهر يوم الاثنين ١٠ منه (٢٥ يناير ١٨٨٥) على أن يركز قنابله على مضيق البحر لمنع أية باخرة تقصد الجهة الشمالية. وفى هذا الوقت اجتاز النهر من أم درمان إلى معسكر النجومى نحو ١٠٠,٠٠٠ مقاتل من البقارة ليشتركوا فى إسقاط المدينة، وكانوا مسلحين بالحراب والسيوف بخلاف الذين كانوا مسلحين بالبنادق، حيث سقطت المدينة.

وأصدر المهدى إلى محمد نوبارى أحد قواده أمرا قال له فيه "لدى دخولك المدينة يجب أن تقصد سراى غوردون على الفور وتبلغه تحياتى ثم تحافظ على حياته ولا تترك أحدا يعتدى عليه حتى توصله إلى سالما بغير أن يصيبه مكروه" وخطب فى الجمع قائلا: "لا يتعرضن منكم أحد إلى حياة غوردون بسوء لأننى أريد أن أفتدى به أحمد عرابى باشا"[١٥٦] واقتحم المهديون الخرطوم فى ٢٥ يناير ١٨٨٥. كما أشرنا لتسقط فى اليوم التالى و تقدمت قوات من كل جانب نحو قصر الحاكم العام حيث قتل غوردون[١٥٧] عند مدخل القصر رغم تنبيهات الإمام المهدى بعدم قتله، ومحاولة القبض عليه حيا، وتضاربت الروايات حول مقتله، فالبعض يذكر أن قتله كان انتقاما منه لشنقه أحد الرجال، والبعض الآخر روى أنه قد قتل انتقاما لمقتل سليمان بن الزبير والسعيد باشا حسين ابن عم الزبير[١٥٨].

وظلت أخبار غوردون مقطوعة ، غير معروف ما إذا كان حيا أو أن شيئا ما قد حدث له بسبب انقطاع أخبار الخرطوم عن العالم الخارجى ، وبسبب تعثر وصول تشارلز ويلسون إلى العاصمة بعد سقوطها وتأخره فى الإبلاغ عن هذا السقوط إلى المسئولين فى القاهرة ولندن[١٥٩].

ولقد انتصرت الثورة المهدية وأصبح السودان و العاصمة تحت يدها ، وحول هذه السيناريوهات والنتائج يذكر عبد الودود شلبى أن " الإنجليز لا يريدون للمهدى أن ينتصر " فى صراعه ، وأنهم كانوا يريدون إجهاض الحركة المهدية كما أجهضوا الحركة العرابية[١٦٠] ونحن لا نتفق مع هذا الرأى فقد كان الإنجليز يريدون ضياع الإمبراطورية المصرية فى السودان وشرق أفريقيا ، بل هم الذين وفروا الظروف لانتصار المهدى ، فرجالهم هم الذين استخدموا العنف والقتل وهم الذين حكموا بالإعدام ونفذوه ، وهم الذين ناهضوا تجارة الرقيق وحاولوا منعها بشكل فورى لا تدريجى فى بلد يعتمد عليها منذ وقت طويل ،

وهم الذين طالبوا بأن تكون قيادة للجيوش لهم دون سواهم من الأتراك أو المصريين أو السودانيين فى بلد لا يعرفون ظروفه الجغرافية والمناخية ، بلد شعبه مسلم لم يكن يقبل بقيادة مسيحية تتولى القضاء على ثورته الإسلامية ، وحينما أدت المقدمات الواقعية والمنطقية إلى أن يصبح الحكم التركى المصرى فى السودان فى يد القدر ، اقترحت بريطانيا إخلاء هذا البلد الواسع ، وأن يتولى تلك المهمة رجلها غوردون الذى لم يكن أمينا على مصالح مصر ومصالح أهل السودان والذى هدم أسس اقتصاده، ولقد كان بوسع إنجلترا لو أرادت وقتها إرسال حملة قوية يقودها ضباط أكفاء مسلحون بأحدث الأسلحة المتوفرة لديها أن تقضى على الثورة المهدية كما قضت على الثورة العرابية ، إلا أن ذلك كان أمرا مكلفا نظرا لقوة الثورة وضراوة المقاومة والجهاد المهدى ضد الوجود الأجنبى والتركى ثم أنه لم يكن فى صالح بريطانيا إبقاء السودان لأن ذلك فى النهاية حق مصر بينما كانت بريطانيا ترمى إلى ضياع السودان كما ضاعت مصر ، لتقوم هى بالاستيلاء عليه.

وتستطرد المصادر الأجنبية فى الحديث عن شدة المهديين وتعصبهم فتذكر ليس فقط أن غوردون قد قتل قتلا فظيعا ، وإنما تم تعليق رأسه على شجرة فى أم درمان ، وتفصل المصادر الحديث فى أعمال وصفتها بالقسوة والرغبة فى سفك الدماء بطريقة وحشية ، مثل قطع رقبة خياط الملابس النمساوى Klein من الأذن إلى الأذن ، بينما كان دمه يتدفق أمام أعين أطفاله وزوجته ، وتقطيع جسم ابنه الشاب ذا الثمانية عشر عاما ، وأن المهديين كانوا يقتلون حتى الصبيان الصغار ، أما البنات والنساء الحسناوات فقد تم توزيعهم كمحظيات لأمراء وقادة المهديين[١٦١] وبالطبع فإنه وقت الثورات لابد أن تسقط الضحايا ، خاصة لو كانت من جنس الأجانب الذين طالما عانى منهم شعب السودان بسبب الزنج والقتل ومنع تجارة الرقيق والحروب المترتبة عليها ، وفى وقت قاسى فيه الشعب من المجاعات والموت والاسترقاق وسوء الإدارة من حكام هم أجانب وليسوا مسلمين بينما كانت الثورة المهدية ثورة إسلامية .

السودان وشرق إفريقيا والمطامع الأوربية:

تسابقت الدول الأوربية بعد إخلاء السودان لكى تنجح فى اقتطاع جزء من هذا البلد الواسع وتضمه إلى مستعمراتها ، فاحتلت إيطاليا بموافقة بريطانيا مناطق مصوع وإرتريا ورأس جورد فوى ، واستولت فرنسا على تاجورة وجيبوتى ، واحتلت بريطانيا زيلع وبربرة سنة ١٨٨٤ ، ثم ضمت هرر ومعظم

أوجادين والصومال حتي رأس جوردفوى إلى ممتلكاتها، ولكنها تركت الفرصة لملك الحبشة لضم هرر[١٦٢].

وفى سنة ١٨٨٨ وجه خليفة المهدى عبد الله التعايشى حملة بقيادة عمر صالح فى خمسة آلاف مسلح نحو المديرية الاستوائية، وكان مديرها منذ الحكم التركى المصرى أمين باشا قد غادر "اللادوه" عاصمة المديرية وتوجه نحو الجهات الجنوبية على أثر هزيمة جنوده منذ عامين أمام داعية المهدية "كرم كرقساوى" فى شكا وبحر الغزال، ولما وصلت حملة المهدية الثانية بقيادة عمر صالح إلى "اللادوه" وجدتها خالية فتوجهت نحو الرجاف جنوباً، ودارت المعارك بين المهديين والحامية الموجودة بالاستوائية وانتهت بهزيمة الحامية وانسحاب أمين باشا من المديرية الاستوائية نهائيا ومغادرتها مع حملة استانلى الإنجليزية الكشفية، وبذلك خلا الجو للنفوذ المهدى فى الاستوائية، حتى كان فى إمكان المهديين جلب العاج وريش النعام وسائر المحصولات الجنوبية[١٦٣].

وقد نجح الإنجليز بعد ذلك فى عقد اتفاقات حول توزيع مناطق النفوذ مع الألمان فى شرق إفريقيا، ثم بسط الإنجليز حمايتهم على أوغندا وأنيورو، ووضعوا حدودا مع الكنغو البلجيكى فى منطقة البحيرات العظمى[١٦٤].

وفى عهد الخليفة وقعت الحروب بين الأحباش والمهديين وانتهت بلا حسم من الطرفين رغم موت الملك يوحنا فى معركة "المتمة" ١٨٨٩[١٦٥].

هكذا تم تشكيل الدولة المهدية فى عهد زعيم الثورة ومؤسسها محمد أحمد عبد الله المهدى الذى لم يستمر كثيرا بعد سقوط الخرطوم فى ٢٥ يناير ١٨٨٥ فمات فى نفس السنة فى ٢٢ يوليو ١٨٨٥ الموافق ٨ رمضان سنة ١٣٠٢ هـ ، وقد أوصى المهدى بخلافة عبد الله التعايشى الذى كان عليه أن يتحمل مسئولية استمرار وبقاء الدولة المهدية[١٦٦] التى أصبحت هدفا وجهت إليه سهام الأوربيين من الشرق ومن الجنوب ثم من الشمال بعد موت المهدى.

وبسبب التدخل الفرنسى فى فاشودة فى جنوب السودان ، وطمع جهات أخرى فى السودان الشرقى ومنها ملك الحبشة ، وبهدف تغلغل النفوذ البريطانى فى السودان ووسط القارة واستغلالها قررت بريطانيا إعادة فتح السودان أو غزوة بجيوش يبلغ عددها ١٧,٦٠٠ من المصريين و ٨٢٠٠ من الإنجليز والقيادة للورد كتشنر حيث وقعت معركة فى ٢ سبتمبر ١٨٩٨ بين قوات غزو السودان وبين القوات المهدية التى سقطت فيها القتلى بالآلاف أمام ضخامة عدد

الجيش الغازى وقوى تسليحه وتنظيمه ، كذلك قتل الخليفة عبد الله فى معركة دارت قرب جزيرة أبا ، وتم رفع العلمين الإنجليزي والمصرى على بقايا قصر غوردون[١٦٧] ، وكان اشتراك مصر فى الواقع بالنسبة لإنجلترا مجرد غطاء سياسى – على اعتبار أنها كانت صاحبة السلطة فى السودان قبل ١٨٨٥ – لأن القوى الأوربية كانت طامعة فى السودان خاصة فرنسا ، التى اضطرت أمام الموقف البريطانى المتشدد إلى الانسحاب من فاشودة بجنوب السودان ، لكى يتم الاستيلاء العسكرى الإنجليزي المصرى على هذا البلد الواسع بقيادة لورد كتشنر[١٦٨] ، وقد تم حكم السودان بموجب الاتفاقية الثنائية التى عقدت بين إنجلترا ومصر فى ١٩ يناير ١٨٩٩ ليدخل هذا البلد العربى الأفريقي فى مرحلة جديدة من صراعه التاريخى وحركته الوطنية ضد قوى السيطرة والاستغلال وخلال هذه الفترة الطويلة من الحكم الثنائى يتم استخدام الجيش والعمالة المصرية لتحقيق مصالح المستعمر الإنجليزي ، لقد كانت الغرامة والتكلفة على مصر ، والمغانم والمكاسب للإنجليز ، والاستغلال للسودان وشعبه[١٦٩].

ولقد ظلت إنجلترا تتوجس خيفة من ظهور المهدية وما شابهها من الحركات الدينية التى استمرت لوقت طويل تشكل خطرا على الحكومة الثنائية[١٧٠] بل وعندما نشط السيد عبد الرحمن بن محمد أحمد المهدى نشاطا اقتصاديا (فى زراعة القطن وغيره) ولما التف حوله الأتباع فى جزيرة أبا خشت بريطانيا من إعادة ظهور المهدية مرة ثانية ، وأطلقت لعبد الرحمن المهدى الفرصة لزيادة نشاطه الاقتصادى حتى لا ينشغل بالأوضاع السياسية إلا أن عبد الرحمن من جانبه حاول استغلال ذلك فى كسب وضع سياسى فى البلاد أطلقت عليه بريطانيا اسم المهدية الجديدة[١٧١].

الثورة المهدية والعلاقات بين الشعبين السودانى والمصرى

الموقف الشعبى المصرى والسودانى:

مصر والسودان بلدان عربيان أفريقيان، يدين شعبيهما بالإسلام، وتتعمق العلاقات البشرية والمصالح الاقتصادية بينهما منذ القدم، وهما يعتمدان فى حياتهما بقدر كبير على النيل، وأوجدت الدولة التى أنشأها محمد على فى مصر ١٨٠٥ مجالا لفتح السودان وضمه إلى نطاق المدنية والتحضر منذ عام ١٨٢٠، وامتد النفوذ المصرى التركى إلى شرق السودان والمناطق الاستوائية، وكان من الممكن للدولة المصرية الإفريقية أن تخلق قوة كبرى بمرور الوقت فى شمال

وشرق إفريقيا إلا أن عوامل متعددة ترتبط بالتدخل الأوربى والتغلغل الاستعمارى، واحتلال مصر وفرض السيطرة المالية والاقتصادية عليها، والتنافس الاستعمارى على احتلال دول القرن الأفريقى وجنوب السودان ، ولقد أدى سوء إدارة بلاد السودان من جانب الحكومات المسئولة والموجهة بواسطة القيادات التركية والأوربية قبل المصرية إلى فساد أحوال البلاد ومن ثم كانت الثورة المهدية.

وجدير بالملاحظة أن الظلم وسوء الإدارة وتفضيل العنصر التركي والأوروبى على أهل البلاد من المصريين والسودانيين كان واقعاً مشتركا، ولذلك فإن الشعور بالثورة والسخط ضد الحكم الخديو فى مصر والسودان كان عاماً، ولعل التوافق الزمنى فى وقوع ثورتى عرابى فى مصر ١٨٨١ والمهدى فى السودان بعدها بشهور قليلة لم يكن مجرد صدفة . ولم يكن السودانيون بعيدين عن الأحداث التى وقعت إبان ثورة عرابى ، فقد كانت مشاركتهم إيجابية ومباشرة ، وذلك لأن الفرقة السودانية فى الجيش المصرى كانت فى مقدمة الفرق الثائرة ، وكان قائدها الأميرآلاى عبد العال حلمى أحد زعماء الثورة ، ولما قامت الحركة المهدية فى السودان كان الضباط السودانيون ظهيرا لحركة المهدى فى القاهرة ، وكانوا يمدونه بالمعلومات والأخبار ، وكان بالسودان عدد كبير من الموظفين المصريين المنفيين وهؤلاء أعلنوا الغضب والسخط على حكومتهم وتعاطفوا وساهموا بآرائهم فى ثورة المهدى ، وقصة الشيخ أحمد العوام دليل وبرهان على ذلك(١٧٢).

ومما لاشك فيه أن مجلة العروة الوثقى التى كان يصدرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده لعبت دوراً بارزاً فى إثارة الشعب المصرى ضد المستعمر، كذلك مدحت مقالتها الثورة المهدية فى السودان وحثت الوطنيين المصريين على التحالف معها.

لقد تأثر السودان بآراء وأفكار الأفغانى ومحمد عبده كما تأثرت بها الثورة العرابية وذكر محمد عبده أن ٨٤ طالبا من السودانيين كانوا يتلقون الدروس خلفه فى الأزهر وتأثروا بأفكاره ، وذكر عباس العقاد أن جمال الدين الأفغانى فكر فى إرسال الشيخ محمد عبده للعمل مع المهدى فى السودان ، وقد تم إجراء تحقيق مع محمد عبده بتهمة جمع الأسلحة وإرسالها إلى السودان ، وقد سبق للمهدى أن كتب منشورات موجهة لرجال الحركة الوطنية ولبعض الأهالى فى مصر ، ولذلك فكر محمد عبده فعلا فى الهروب إلى السودان ليستعين بقوات

المهدى لبعث الثورة هناك لتقوم بتحرير مصر وكل وادى النيل[١٧٣].

لقد كانت الثورتان المهدية والعرابية تطالبان بإصلاحات إدارية واجتماعية وضرائبية واقتصادية ، وكانتا ضد الواقع القائم المتمثل فى سيطرة الأتراك على المناصب العليا ، وتدخل الأوربيين فى شئون البلاد ، وكانت كل منهما عبارة عن حركة تحرر، وعندما قامت الثورة العرابية أعلنت بعض عناصر المهديين تأييدهم لعرابى، مثل عثمان دقنة ولم يخف عرابى وهو فى منفاه تأييده للمهدى، وأنه كان ينوى لو نجحت ثورته أن يعينه حاكما عاما على السودان[١٧٤].

وعندما كان الإمام المهدى يحاصر الخرطوم – حيث سقطت، وقتل غوردون – كان يفكر فيما ألم بمصر وشعبها من المحن والمصائب بعد احتلالها، وإجهاض انتفاضة الجيش بقيادة عرابى[١٧٥]، ولما كانت دعوة المهدى عامة لكافة المسلمين والبشر تطلع إلى غزو مصر وتوحيد وادى النيل تحت زعامته كمقدمة لتوحيد بلدان العالم الإسلامى[١٧٦].

وفى مصر وخلال الثورة العرابية، وعند تصديها للاحتلال البريطانى انحاز الخديو توفيق لقوى الاحتلال البريطانى، فأصدر علماء الأزهر فتوى بمروق الخديو عن الدين الإسلامى، وكان لهذه الفتوى رد فعل وصدى[١٧٧]. فقد سوغت للمهدى ليس فقط القيام بثورته ضد ممثلى الخديو ونوابه فى السودان بل وأن يصدر منشوراته باعتبار الترك من المارقين والخارجين عن الدين لتعديهم حدود الله، والحكم بغير ما أنزل الله ، ولذا وجبت معاداتهم ومحاربتهم، وزوال دولتهم، بل وقضى ببطلان الخلافة العثمانية التى باعت بلاد الإسلام للمستعمر[١٧٨].

ولما هزمت القوات التركية المصرية بقياداتها البريطانية فى السودان أعلنت مجلة العروة الوثقى أن بريطانيا أصابها الذعر والعجز أمام الثورة المهدية وناشدت المسلمين كافة بأن يتفقوا أثر إخوانهم السودانيين فى الثورة ضد المستعمرين[١٧٩].

ولما حققت الثورة المهدية انتصارات عظيمة، لم يكن الشعور لدى الشعب المصرى بأقل حماسا من السودانيين، وكان أهالى صعيد مصر ينتظرون وصول قوات المهدى لطرد الإنجليز[١٨٠]، وشكلت ثورة المهدى وانتصاراتها المتلاحقة أملا عظيما فى نفوس المفكرين ورواد الحركة الوطنية المصرية، وكتب محمد عبده ممتدحا الثورة المهدية وداعيا لتأييدها، ولما أراد الإنجليز

تخويف محمد عبده بأن الثورة المهدية خطر على مصر، رد عليهم بقوله "لا خطر على مصر من حركة المهدى ولكن الخطر من وجودكم فيها، وإنكم إذا غادرتم مصر فالمهدى لن يرغب فى الهجوم عليها، ولن يكون لهجومه خطر، وهو الآن محبوب من المصريين ويعتبرونه مخلصا لهم من الاعتداء الأوروبى، وسينضمون إليه عند قدومه"، وتكونت فى مصر جمعية سرية لمقاومة الاحتلال متحالفة مع الثورة المهدية، ضمت نخبة من طبقات الأمة بما فيهم سعد زغلول، وجاء فى إحدى رسائل هذه الجمعية إلى المهدى ما نصه: "الغوث أيها الأمين، فلقد تفطرت الأكباد، وأصبحنا فى مذلة كبنى إسرائيل ، لندعوك لنجدة الدين". وورد بذات الرسالة الموجهة للمهدى "الأمة المصرية الإسلامية جميعها... يطالبونكم ويشهدونكم على أنفسهم باستغاثتهم فأعدوا الجواب ليوم الحساب"[١٨١].

والثورة المهدية بدورها هذا كانت فى الواقع حركة مقاومة موجهة ضد التوغل الأوربى، لقد كانت ثورة من قبيل الاحتياط خشية أن يذهب السودان فريسة الأطماع الأوربية، خاصة أن مصر لم يكن بوسعها أن تحول دون هذا السقوط لا بالنسبة لها ولا بالنسبة للسودان[١٨٢].

ويترتب على ذلك أن مسألة القطيعة بين شعبى وادى النيل مصر والسودان لم تكن فى تفكير الإمام المهدى ولا فى تفكير سكان البلدين، إنما هى فقط من تفكير وخيال الأوروبيين، فسياسة فرق تسد، كانت منهجا ابتدعوه.

المجتمع الإسلامى السودانى كما تصوره المهدى

فى الدين والسياسة

كانت الصوفية المنبع الذى اغترف منه المهدى أصول حركته . خاصة أن الجمهور السودانى – كعامة جمهور شمال إفريقيا وقتها – كان يميل إلى مناصرة الوجدان المرتبط بالخوارق والمجهودات أكثر من نصرة العقل المرتبط بالنظريات والقواعد العقلية[١٨٣] ، ولذلك كان شيوخ الطرق الصوفية فى هذا الوقت هم المرجع الوحيد للشعب فى قضاياه المتعددة ، ولما كانت المهدية فى التراث تمثل أملا فى الخلاص من الظلم الذى تتعرض له الجماعات فى عصورها المختلفة فقد كان الشعب السودانى يتطلع إلى المهدى كمخلص له من المظالم التى أناخت كاهله بشدة والتى جعلت من الحكام وحوشا مفترسة فالضرائب باهظة والرشوة متفشية والأعراض مستباحة ، على مرأى من رجال الإدارة والحكم[١٨٤].

ولم تكن الثورة سياسية – أول الأمر على الأقل – بل كانت دينية بحتة وأسلوبها فى البداية سلميا ، وذلك يلفت النظر إلى المفاسد الاجتماعية والانحطاط الخلقى وابتعاد الناس عن الدين[١٨٥] وبتحول المهدية إلى نظام لحكم السودان لم يكن هناك حد فاصل فيها بين الدين والدولة.

ومع أن المهدى أصلا من المتصوفة إلا أنه فى سبيل توحيد الشعب السودانى ومنع الفرقة بين ابنائه دعى إلى نبذ القبلية.[١٨٦] وألغى المذاهب والطرق الصوفية ، واعتبرها مصدر تمزق وفرقة ، ودعا إلى التمسك بالكتاب والسنة اللذين هما المصدران الوحيدان عنده للعقيدة والشريعة ، وكان المهدى فى كل ذلك تلميذا لابن تيمية ، ودعا إلى ما دعى إليه أصحاب حركة الإصلاح التى عمت المجتمعات الإسلامية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وفى مقدمتهم محمد بن عبد الوهاب الذى من المرجح تأثره به[١٨٧] ، ولم يقبل بما جاء به العلماء الأقدمون بل أمر بإلغاء كل ما وجد من فتوى واجتهاد، وأصدر تعاليم جديدة مكملة للقرآن والسنة[١٨٨] ، وغرس فى المجتمع السودانى نزعة التقشف والزهد ، والتمسك بإحياء أصول الدين والاهتداء بسنة الرسول الكريم ، وبدأ المهدى بنفسه يرتدى الجبة المرقعة التى تشبه ملابس الدراويش ، واقتفى أثره وسار على هديه أنصاره ومريدوه ونصح المهدى الناس بالبعد عن المفاسد واجتناب البدع والشعوذة ، ووضع حدا لتفشى الفوضى وذلك بتطبيق حدود الشرع ، كما حرم زيارة القبور والتضرع للأولياء والصالحين ، والاتصال بالدخلاء من الأجانب ، واعتبر اللجوء إلى غير الله والحلف به شركا لله فى العبودية ، وأمر بمنع النساء من التبرج والاختلاط السافر بالرجال وتحليهم بالذهب والفضة ، وعمل على تقليل تكلفة الزواج والحد من المبالغة فى ولائم العرس ، وكذلك حرم الرقص والغناء وأبطل الحداد والنواح[١٨٩].

واتهم المهدى رجال الدين التقليدين بأنهم "مقلدة العلماء" وبأنهم أفسدوا الدين لانشغالهم بالرواتب والوظائف والمظاهر، وبأنهم جعلوا الدين مطية للحكام، فما قدموا لهم نصحاً ولا معارضة لأهوائهم، ويعتبر خطابه الموجه لعلماء مصر عريضة مفتوحة فصل فيها الكلام حول هذه النقطة، ويعتقد المهدى أن العلماء منافقون لأنهم يقولون ما لا يفعلون، فهم ضالون ومضللون، وأن الدين قد انقلب على أيديهم إلى متون وحواش تحفظ وتردد عن ظهر قلب، ويخاطبهم المهدى فى إحدى منشوراته يقول: "يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون وتدرسون ما لا تفعلون فما سوء ما تحكمون..."[١٩٠].

والواقع أن ما أراده المهدى هو أن يكون الولاء له وحده ولثورته الدينية الاجتماعية بدلا من التشتت وتعدد الولاءات.

المجتمع الإسلامى عند المهدى:

رأى المهدى أن مهمته الرئيسية خلق مجتمع إسلامى سليم على نمط مجتمع الرسول والخلفاء الراشدين ، وقد ألزم نفسه بالسير على منوال الرسول لكى يعيد سيرته ، خاصة أنه رأى زمنه مثل زمن الرسول وأصحابه مثل أصحابه فى الفضل والمرتبة الدينية ، وقد أعطى لنفسه حرية التشريع وأجاز لنفسه العمل بمعزل عن محصول التراث الذى تركه المسلمون – ما عدا القرآن والحديث – لأنه يرى أنه يحمل مؤهلا لم يحمله أحد من المسلمين وهو التلقى المباشر عن رسول الله وأحيانا عن الله سبحانه وتعالى بالإلهام مما يجعله يصل إلى الحكم الذى يضعه الرسول نفسه لو كان فى مكانه(١٩١).

وبالطبع فقد دعا محمد أحمد لمهديته سرا ثم أصبحت دعوته للعامة والعلماء مباشرة فأقبل عليه الناس من أهل السودان ومشايخه من كل حدب وصوب لمبايعته ، فى الوقت الذى ثار عليه كثير من رجال الدين وعلماء الأزهر فى مصر وأساتذته فى السودان وأنكر علماء الإسلام الرسميين دعوته التى كانت تضر فى نفس الوقت بمصالحهم ، وأرسل السلطان عبد الحميد منشورا لتكذيب دعوته(١٩٢).

أما المهدى فقد أبلغ منشوراته ورسائله لمن يثق فيهم من المشايخ ، والذين أراد أن يبلغهم بمهديته ، ولقد اعتبر من يخالفه أو يعارضه من الخاسرين ومما جاء في أحد خطاباته إلى الشيخ محمد الأمين الضرير قوله : "ولايخفى عزيز علمك أن العلماء ينكرون كثيرا من أمور المهدية لأنه ليس على معتقدهم الذى يظنونه ، ولأنه يخالف مذاهبهم فلمهدينى من الله دلايل ، فمن شاء فليؤمن(١٩٣) ومن شاء فليكفر " وفي موضع آخر من الخطاب يقول له "من له السعادة صدق بأنى المهدى المنتظر"(١٩٤).

وفى خطابه إلى الشيخ عبد الفتاح عبد الله من الأولياء العارفين عند بدء الدعوة المهدية يقول: "يا حبيبى هيا على إقامة الدين، فإننا كاتبنا جميع المحبين والمتعبين لأوامر الدين...". وفى خطابه إلى الشيخ محمد الطيب يقول: "لا يخفى عزيز علمكم أن الأمر الذى نحن عليه لابد من دخول جميع المؤمنين فيه إلا من هو خالى من الإيمان".

وإذا كان المهدى قد بدأ ينشر دعوته كمصلح دينى يريد تحرير العقيدة الإسلامية من الشوائب، ويريد إعادة مجد الإسلام القديم، إلا أنه لم يلبث أن اتجه بتفكيره وبدعوته إلى المسائل السياسية والاقتصادية فعزا ما لحق بالشريعة والدين من تحقير وإهانة إلى "الترك" و"المصريين" الذى ازدروا أحكام الشريعة، وجروا فى حكوماتهم على خلاف ما تقضى به هذه الشريعة، وألح على ضرورة طرد الأتراك والمصريين من السودان باعتبار أن تلك هى الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها وحدها تقرير العدالة ونشر السلام، وأعلن وجوب الامتناع عن دفع أية ضريبة للحكومة إلا الزكاة والعشور التى نص عليها الشرع الإسلامى[١٩٥].

وانتقل محمد أحمد بدعوته إلى مرحلة تالية وهى الهجرة إلى منطقة نائية هى جبل "قدير" فى جبال النوبة بعيدا عن عاصمة الحكومة حتى يتسنى له فيها بناء مجتمع إسلامى على أسس مثالية ، ويذكر المهدى دائما أن الرسول هو الذى أمره بالهجرة ووعده بالنصر حيث أنه كان يقول بتلقى الأمر عنه مباشرة ، ولا غرابة فى ذلك على المجتمع السودانى فكثير من أولياء السودان كانوا يقولون بذلك[١٩٦].

ولقد ووجه المهدى بالطبع بجيوش الحكم المصرى التركى، وبخطط الخبراء والإداريين والمستشارين الإنجليز[١٩٧]، ولكن ضعف الحكومة الخديوية، ورغبة الإنجليز فى زوال حكمها وتزايد الأحوال سوءا فى البلاد، وكثرة أتباع المهدى ومؤيديه، وتمكنه من التصدى لقوى الجيوش النظامية أدى إلى نجاح ثورته.

وخلال صراع المهدى مع الحكومة القائمة دعا الناس للانتقال إليه ، والخروج من عالم "التركية " الملئ بالمظالم ، على أن دعوة المهدى لم تكن من أجل الخروج السلبى على ذلك العالم ونبذه والابتعاد عنه ، بل خروجا من أجل تغيير هذا العالم وإصلاحه فدعا إلى الانفصال عن الإدارة الموجودة وإلى اللحاق به وبدعوته ، وكانت دعوته للناس تعبيرا عن موقف اجتماعى فى واقع الأمر[١٩٨].

وبدأ المهدى زاهدا فى مسلكه الخاص ، وفى تركيزه على فكرة زوال الدنيا وانعدام قيمتها، وهى فكرة قديمة فى الأدب الصوفى ومنشوراته مليئة بالدعوة لكراهية الدنيا وتحقيرها، وعلى حب الموت فى سبيل الله والدين حتى يجد حوله المشايخ والشباب والأتباع الذين يضحون فى الحروب والمعارك التى وقعت ضد

جيوش حكومة السودان التركية، فقد جاء فى أحد منشوراته القول: "وجاهدوا فى سبيل الله واعلموا أن سيفا سل فى سبيل الله أفضل من عبادة سبعين سنة..."[١٩٩] وفى منشور آخر يقول: "يا أحبائى، فقد بايعتمونى على ألا تشركوا بالله شيئاً.. وأن تزهدوا الدنيا وتبذلوا أنفسكم وأموالكم فى سبيل الله.. وألا تفروا من الجهاد..."[٢٠٠]، وفى منشور ثالث يقول: "اعلموا أن كل ما فى الدنيا هو ضيف.."[٢٠١] أى شئ عارض لا يدوم، وفى منشور رابع للخليفة عبدالله يقول: "أحبابى لا يخفى عليكم أن الدنيا دار غرور، والتعلق بها لا طايل تحته.."[٢٠٢] أى لا فائدة منه، وفى رسالة أخرى للمهدى يقول فيها: "إن هذه الدنيا كما نكرر لكن خيالات زايلة..."[٢٠٣] ويقول خليفته عبد الله التعايشى: "كونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا"[٢٠٤]، ويقول المهدى: "أحبابى، المعلوم أن الدنيا كظل النهار فمن استوطن الظل فقد عدم العقل وتمكن منه الاغترار"[٢٠٥] ويقول: "حقيقة أن ما فى الدنيا جيفة"[٢٠٦]، ويذكر أن "العبيد الأتقياء الذى تركوا الدنيا لأجل الآخرة، والأحرار الكرام هم الذين تركوا الدنيا والآخرة لأجل الله.."[٢٠٧] ويقول المهدى فى أحد منشوراته "فيا أحبابى احذروا الدنيا، واتعظوا بما شاهدتموه من هلاك أربابها ، واحرصوا على حفظ دينكم ولا تبدلوا الخبيث منها بالطيب الأخروى"[٢٠٨] ويذكر فى منشور آخر له: "يا أحبابى لا يخفى عليكم أن الدنيا عند الله حقيرة دنية حسيسة، لا توازى جناح بعوضة وطلابها أخس عنده تعالى وأدنى وأحقر ، وذلك جعل جزاءهم النار"[٢٠٩]، ويقول : "فمن عرف سوم الدنيا وقرب فواتها وخسة قدرها جاد بما يوظفه عند الله وينال به عنده حسن المكانة، والجهاد فى سبيل الله فقد نوه الله بفضله ورغب فى نواله وزهده فى حياة الدنيا وشهواتها ، فقال تعالى:" يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اث اقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة فى الآخرة إلا قليل".[٢١٠]

وكان المهدى فى دعواه إلى كراهية الدنيا التى هى دار الفناء ودار الزوال ينصح بألا يتكالب الناس على جمع المال والثروة يقول : " إن جريت جرى الوحوش غير رزقك ما بتحوش..."[٢١١] ورغم أن هذا الكلام يبدو وكأن فيه حكمة إلا أن هذا أسلوب لا يناسب تطور العالم وصراعه من أجل الثروة والمال ، حتى تتقدم البلدان من خلال تراكمات رؤوس الأموال واستخدامها فى الزراعة والصناعة والخلق والإبداع.

وحول كراهية الدنيا وزوال ما فيها، وعظمة الجهاد فى سبيل الله يقول:

الخليفة عبدالله: "عن أنس بن مالك... قال: قال رسول الله(ص) ما من بيت إلا وملك الموت يقف على بابه كل يوم خمس مرات، فإذا وجد الإنسان قد نفذ أكله وانقطع أجله ألقى عليه غم الموت فغشيته كرباته وغمرته سكراته..." ويقول الإنسان وهو فى نعشه "يا أهلى لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بى جمعت المال ثم خلفته لغيرى، ويستمر منشور الخليفة يقول: "وقد علمتم أحبابى رحمكم الله تعالى أن أعمال الخير شتى، ولكن الجهاد فى سبيل الله أجلها وأفضلها وأعلاها وأكملها".[٢١٢] ولقد سار الخليفة عبدالله على سياسة مؤسس الدولة نفسه.

والمهدى لم يكن يرفض الدنيا رفضاً مطلقاً بل ربط ذلك بتكالب الناس على الأموال والوظائف وتكالبهم على التعاون أو التعامل مع النظام التركى القائم فى بلاد السودان، والذى أدى إلى خراب الأحوال فى الفترة الأخيرة منه[٢١٣].

وظلت منشورات المهدى وبعده الخليفة عبد الله وآراؤهما بعد القرآن الكريم والسنة المحمدية هى المصدر الأساسى للتشريع فى دولة المهدية وظل الأمر على ذلك حتى مجئ الحكم الثنائى حيث صدرت " لائحة ترتيب ونظام المحاكم الشرعية " فى ٣١ أغسطس سنة ١٩١٥ ، وبذلك تلاشت فتاوى المهدية وتشريعاتها[٢١٤].

التحولات الاقتصادية فى السودان فى عهد محمد أحمد المهدى:

ولقد كان للمهدية برغم كونها ثورة دينية فى المقام الأول أهدافا اقتصادية واجتماعية تعتبر ثورية فى هذا الجانب أيضاً، فبرغم أن الملكية الفردية كانت أمراً مقرراً فى دولة المهدية، إلا أن الملكية العامة كانت هى المبدأ السائد، فالأرض فى مفهوم دولة المهدى لله سبحانه وتعالى، والثروة على اختلاف أشكالها وديعة فى أيدى خلفائه يتصرفون فيها وينفقون من خيرها بحيث لا تصبح ميزة فى حد ذاتها أو حقا خالصا لأصحابها، وإنما هى موظفة اجتماعيا، ومن حق الحاكم أن يحدد كيفية الانتفاع بها للصالح العام، فيذكر المهدى فى منشور له عن استغلال الأرض يقول: "فمن كان له طين فليزرع فيه ما استطاع زرعه، وإذا عجز أو لا احتاج إليه[٢١٥] لا يأخذ فيه دقندى (ضريبة عينية يدفعها الزراع لصاحب الأرض، وهو أمر شائع فى غرب السودان) لأن المومنين كالجسد الواحد، وما يساوى به أخاه المؤمن يكون له فى ميزانه دايما بدرجات علا عند الله، وليست المسابقة من المؤمنين إلا فيما يبقى وأن كل مومن ملكه من الطين له، ولكن من باب إحراز نصيب الآخرة فما لا يحتاج إليه يعطيه لأخيه

المؤمن المحتاج"[٢١٦] بل لقد طبق المهدى مبدأ التأميم، فأمم حدائق الخرطوم، وخص إدارتها إلى عمه أحمد محمد حاج شريف باعتباره أمينا عليها لحساب بيت مال المسلمين[٢١٧].

كذلك أصدر المهدى "أمرا بمصادرة جميع الدكاكين والوكالات والقصيريات والعصاصير والطواحين والبنوك" لما يترتب عليه من مصلحة عامة المسلمين[٢١٨]، وضم أيضا السفن والمرافئ لما تدره من مال وفير، كذلك فإن الدور الكبيرة التى كانت ملكا للحكومة التركية ورجالها فى مدينة الخرطوم خاصة قد تم الاستيلاء عليها للصالح العام، وكان بعض هذه الدور من قبل ملكا لبعض أغنياء الناس ولقد أصبحت أموال الحكومة وممتلكاتها فى الواقع غنيمة وعُهد بأمرها بعد التأميم لبيت المال، وأصبح المبدأ الجديد أنه يحق للدولة الاستيلاء على ممتلكات غير ممتلكات الحكومة إذا كانت تحقق مصالح عامة[٢١٩] .

وبالنسبة إلى ملكية الأرض أصدر المهدى منشورا حدد بموجبه ضوابط التصرف فى الأرض حيث أكد أن ملكية الأرض لله وحده ، وذهب المهدى إلى أبعد من ذلك حين أعلن أن الأرض التى لا يستغلها صاحبها من حق غيره أن يزرعها " [٢٢٠] وهذا يعتبر مفهوما ثوريا متقدما يتماثل مع ما وضعه " ماوتسى تونج " زعيم الثورة الصينية حيث أقر بأن " الأرض لمن يزرعها " فلقد ترك المهدى الأرض لكل قادر على زراعتها ، بيد أنه بالنسبة لأطيان السواقى الواقعة على ضفاف نهر النيل ، والتى كثرت بخصوصها المنازعات أقر مبدأ التراضى بشرط مراعاة أحكام الشرع الإسلامى .

وشجع المهدى المزارعين لزراعة المحاصيل النقدية فأمر بتخفيض الضرائب وتجميد فروض الزكاة حافزا للقبائل التى هاجرت من أماكن الإنتاج هربا من الملاحقات الضريبية التى فرضتها الحكومة السابقة ، كما وجه بيت المال للقيام بمنح القروض للمزارعين على أساس المشاركة فى عائد المحصول من أجل إنعاش حركة السوق داخل السودان – حيث تعثرت فى فترة الحرب – رأى المهدى ضرورة اعتماد البلاد على مواردها الذاتية على أن يتم تنظيم السوق وفق ضوابط أخلاقية ، وأنشأ داراً لسك النقود الفضية والذهبية فى العام نفسه تحت إشراف خليفته عبد الله التعايشى[٢٢١].

وكان دخل بيت المال – الذى أنشأه المهدى على نسق بيت المال فى عهد

الرسول(ص) – يأتى من العشور التى تفرض على المحاصيل الزراعية والدواب ومن الغنائم ، وكانت العشور يتم تقديرها من وقت لآخر ثم ترسل إلى العاملين المسئولين عن الأقسام والمراكز والمديريات لكى يقوموا بإحصاء الدواب ، والأرض المزروعة لكى يتم جمع المبالغ المقدرة عليها بموجب مستندات . كذلك كان دخل بيت المال يأتى من الزكاة المفروضة على جميع المسلمين فى ممتلكاتهم ودخولهم ، كذلك حدد المهدى النقود والعملات المتداولة وقيمتها بالريال المجيدى ، لكى يسهل على الناس التعامل فى البيع والشراء وتقدير قيم الممتلكات المادية .

وكان المهدى حريصا على متابعة جمع وتحصيل بيت مال المسلمين وسار الخليفة عبد الله على هدية خاصة فى مراسلة الأمناء والعمال المسئولين عن جمع الغنائم أو تحصيل حق بيت المال ونصحهم بألا ينشغلوا بالدنيا الفانية عن أداء الواجب وإعطاء كل ذى حق حقه ، وعدم التكالب على الغنائم[٢٢٢] ، ويبدو أن دعوة المهدى إلى الزهد اصطدمت بالواقع فالفكرة فى حد ذاتها شعار رومانسى أكثر منها برنامج عملى ، ولقد ظل هذا التناقض هاجسا يؤرق المهدى بقية عمره ، ولذلك استمر صدور منشوراته لنهى الناس عن التكالب على الغنائم والأموال ، مما هو دليل على عدم طاعة الناس للأوامر ، كما استمر الحال فى عهد الخليفة.

وبخصوص العبيد أمر المهدى أن يكون بيع العبيد مركزيا فى الداخل تحت إشراف بيت المال فى أم درمان ومنع بيعه فى الأقاليم منعا باتا ، بل وأمر بعدم الاعتراف بأى مبايعة لا يحمل شاريها موافقة بيت المال بعد قرار المنع.

الهوامش

1- Henry S. L. Alford and W. Dennistoun sword , the Egyptian sudan – its Loss and Recovery, Macmillan and co., Limited , London , New York 1898 , p 9-11

– عبد القادر محمود ، الطوائف الصوفية فى السودان ، ط١ بدون مكان النشر ١٩٧١ ، ص١٥٦ .

٢– الشاطر بصيلى عبد الجليل ، معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع الميلادى، ط١ مطبعة أبو فاضل ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٩٦ .

٣– عبد القادر محمود ، مرجع سابق ، ص١٥٦ .

٤- عندما نذكر فى هذه الدراسة إسم المهدى أو الإمام المهدى فإنما نقصد محمد أحمد المهدى صاحب للثورة المهدية فى السودان فى الفترة ١٨٨١ – ١٨٨٥ .

Henry s. Alfrd and W . Denniston , op . cit ., pp . 9-11 .

٥- الشاطر بصيلى ، مرجع سابق ، ص ١٩٦ – ١٩٧ .

٦- عبد الودود شلبى ، الأصول الفكرية لحركة المهدى السودانى ودعوته ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٢٣ ،محمد إبراهيم أبو سليم ، فى الشخصية السودانية ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، ١٩٧٩ ، ص١٤ –١٦ .

Spencer Trimingham , Islam in the Suden , Oxford Unirersity Press , london , New york , 149 , 217 – 226 .

٧- مجلة الخرطوم ، محمد سعيد القدال ، الرؤيا ... الثورة فى فكر المهدى ١٨٤٤ –١٨٨٥، عدد يونيه ١٩٨٢ ، ص ٢٤ – ٢٥ .

٨- ب . م هولت ، المهدية فى السودان ، ترجمة جميل عبيد ، دار الفكر العربى ، القاهرة، ١٩٧٨ ، ص ٢٤ – ٢٥ .

٩ - نفس المرجع ، ص ٢٥ – ٢٦.

١٠- محمد وضيف الله الجعلى الفضلى ، كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، بدون تاريخ .

١١ – مجلة الخرطوم ، مصدر سابق ، ص ٢٥ –٢٦ .

- Henery S . L . Alford , op . cit , . p 9-11

١٢ – عبد الودود شلبى ، مرجع سابق ، ص ١٣٨ – ١٤٣ .

١٣- ب . م . هولت ، مرجع سابق ، ص ٣١ –٣٢ ، حسن عيسى عبد الظاهر ، الدعوة الإسلامية فى غرب أفريقية وقيام دولة الفولانى ، الزهراء للإعلام .العربى ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٣٧٤ – ٣٧٨ .

– مجلة البحوث التاريخية – مركز الجهاز الليبى ، عدد ٢ يوليو ١٩٨٦ ، قمر الدين محمد فضل الله ، الاتجاهات الثورية فى فكر محمد أحمد المهدى ، طرابلس ، الجماهيرية الليبية ، ص ٣٣٨ – ٣٣٩ .

١٤- محمد صبرى يوسف ، دور المتصوفة فى تاريخ مصر فى العصر العثمانى ، ١٥١٧ – ١٧٩٨ ، دار التقوى للنشر والتوزيع ، بلبيس – الشرقية ، ط١ ، ١٩٩ ، ص ٣٥ .

١٥- مجلة الخرطوم ، محمد سعيد القدال ، الرؤيا ... الثورة عدد يونيو ١٨٨٢ ، مصدر سابق ، ص ١٠ ، ٢٢ – ٢٥ .

١٦ – ب. م . هولت ، مرجع سابق ، ص ٣١ .

١٧- أحمد عبد الله سامى ، الشاعر العربى ، محمد سعيد العباسى ، دار الإرشاد للطباعة والنشر ، الخرطوم ، ١٩٦٨ ، ص ٢٣ – ٢٤ .هولت ، مرجع سابق ، ص٢٩–٣١.

١٨ – أحمد سامى ، ص ٢٣ – ٢٤ .

١٩ – نفسه ، ص ٣٢ – ٣٣ .

٢٠- منشورات المهدى ، تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم . بدون مكان الطبع ، ١٩٦٩ ، المقدمة ص ٤ .

٢١- هولت مرجع سابق ، ص ٥٢ – ٥٤ .
٢٢- نفس المرجع ، ص ٥٣ – ٥٤
٢٣- أحمد سامى ، مرجع سابق ، ص ٣٣ – ٣٤ .
٢٤ - الشاطر بصيلى : مرجع سابق ، ص ١٩٧ .
٢٥- عبد القادر محمود ، مرجع سابق ، ص ١٥٧ .
٢٦ - حسن عيسى عبد الظاهر ، مرجع سابق ،ص ٣٧٤ ، ٣٨٣ .
٢٧- عاطف العقلة غضيبات : الدين والتغير الاجتماعى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، منتدى الفكر العربى، عمان ، ١٩٩١ ، ص ٦٠ – ٦١ .
- محمد عبد الغنى سعودى ، يونان لبيب ، محمد التابعى ، مشكلة جنوب السودان ، مركز بحوث الشرق الأوسط ، مطبعة جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٦٧ .
٢٨- أحمد محمد كانى : الجهاد الإسلامى فى غرب إفريقيا ، الزهراء للإعلام العربى ، ط١ ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٧٦ – ٨٦ .
٢٩ - حسن عيسى عبد الظاهر ، مرجع سابق ، ص ٣٧٤ – ٣٧٨ .
٣٠ - عبد الودود شلبى ، ص ٢١٣ – ٢١٥ ، ٢٥١ .
٣١- عوض عبد الهادى العطا ، تاريخ كردفان السياسى فى المهدية ، المجلس القومى للآداب والفنون ، الخرطوم ، ط١ ، ١٩٧٣ ، ص ٢٧ –٢٩ .
٣٢ - عبد الودود شلبى ، مرجع سابق ، ص ١٥٤ .
٣٣ - نفس المرجع ن ص ١٥٣ ، ١٥٤ .
- وذكر المهدى أن الرسول (ص) قد جاءه وأبلغه أنه يخلفه فى هداية الناس فى الأرض ، وأن علامة المهدية له " شامة على خده الأيمن " وأنه مثله مثل رسول الله ، وخلفاؤه كخلفاء رسول الله ، وأنه منصور ومؤيد من عند الله ضد الترك والخارجين عن الدين .
- The Journals , Major – Gen . Gordon , op . cit , P . 539 – 545 .

٣٤- مجلة البحوث التاريخية ، ٢ يونيه ١٩٨٦ مركز الجهاد الليبى ، طرابلس ، قمر الدير محمد فضل الله ، الاتجاهات الثورية ، مصدر سابق ، ص ٣٣٩ – ٣٤٠ .
٣٥- مجلة الخرطوم ، يونيه ١٩٨٢ ، محمد سعيد القدال ، الرؤيا .... الثورة ، مصدر سابق ، ص ١٠ .
٣٦- منشورات المهدية ، إبدار من المهدى إلى غوردون باشا بتاريخ ٩ مارس ١٨٨٤ . يشير إلى أنه قد أبلغ حكمدارية السودان بمهديته ، وبالطبع فإن بلاغه هو الذى يشير إليه هنا وقد وقع قبل مغادرته جزيرة أبا مهاجرا بدعوته إلى جبل قدير ، فى بلاد النوبة . المنشورات – وكان هذا الإبلاغ فى ٧ أغسطس سنة ١٨٨١ ، – ص ٣٠٨ ، ص ٣٢٠.
٣٧- إبراهيم فوزى باشا ، السودان بين يدى غوردون وكتشنر ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٣١٩هـ.
٣٨- منشورات المهدية ، منشور الدعوة الذى كتبه المهدى وهو فى طريقه إلى جبل " قدير" وقد وزع منه بعض النسخ فى غرب السودان وقد جرى عليه تعديلان إلى أن صار حسب ما هو وارد فى المنشورات بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٨٨١ ، ص ٢٣ – ٢٧ .

٣٩ – نفس المصدر والمكان .
٤٠ – إبراهيم فوزى باشا ، السودان بين يدى غوردون وكتشنر ، ص ٧٧ – ٨٤ .
٤١– منشورات المهدية ، خطاب المهدى إلى محمد الطيب البصير يشير فيه إلى الأمور المتصلة بإعلان المهدية ونشرها بين الناس وقد وصف فى هذا الخطاب المشهد الذى تم فيه تنصيبه مهديا ، ومؤرخ بـ ٣٠ يونيه ١٨٨١ ، ص ١٢ – ١٥ .
٤٢– منشورات المهدية ، أقدم منشورات الدعوة ،وهو منشور البيان موجه إلى أحباب المهدى وأصدقائه يبلغهم باختيار الرسول الكريم (ص) له وأصحابه لفكرة الهجرة إلى جبل قدير ، تاريخه ٣٠ يونيه ثم ٢٨ يوليو ١٨٨١ ، ص ١٩ – ٢٢ .
٤٣– منشورات المهدية ، رسالة من حيان بن سعيد حفيد عثمان دان فودى ، ردا على رسالة المهدى الأولى التى أرسلها له ، من جبل " قدير " ، تاريخها ١٢ مايو ١٨٨٣ ، ص ٣٣٤ – ٣٣٨ .
٤٤– منشورات المهدية، خطاب المهدى إلى محمد المهدى السنوسى ، زعيم الطائفة السنوسية يذكر فيه خلافة خلفاء الخلفاء الراشدين الذين هم كبار مساعدى المهدى ، وهو مؤرخ بـ ١٣ مايو ١٨٨٣ ، ص ٧٠ – ٧٥ لهذا الخطاب نصان مختلفان ، أولهما النص الذى يرد فى مخطوط توشكى والمجذوب ،وهو النص الذى أرسل للسنوسى فعلا ، والثانى ورد فى كتاب الإنذارات وما نقل عنهما ، وهو نص معدل اقتطع منه الفقرات التى اقتبسها المهدى من منشوى الدعوى وأدخلت فيه تعديلات .
٤٥ – ب . م . هولت ، لمهدية فى السودان ، ص ٩٤ .
٤٦– نفس المكان .
٤٧ – عبد الودود شلبى ، مرجع سابق ص ١٤٣ .
٤٨ – منشورات المهدية ، المقدمة بقلم محمد إبراهيم أبو سليم ، ص . ز .
٤٩ محمد إبراهيم أبو سليم ، الحركة الفكرية فى المهدية ، دار الجيل بيروت ، ط٢ ، ١٩٨١ ، ص ٨ .
٥٠ – مجلة الخرطوم ، يونية ، ١٩٨٢ ، محمد سعيد القدال ، الرؤيا للثورة ، مصدر سابق، ص ٢٥ .
- Major . F . R . Wingate, Mahdism and Egyptian sudan MacMillan and co . London , New yourk 1891 p . 66 –71
٥١ – محمد صبرى يوسف ، مرجع سابق ، ص ١٧ .
٥٢ – محمد إبراهيم أبو سليم ، الحركة الفكرية فى المهدية ، مرجع سابق ، ص ٣ .
٥٣ – عبد الودود شلبى ، مرجع سابق ، ص ١٣ ، ص ١٤٦ – ١٤٨ .
55 – Major F. R Wingate , op , cit , p 66-71 .
– محمد صبرى يوسف ، مرجع سابق ، ص ٣٢ .
٥٦– مجلة البحوث التاريخية ، ٢ يونية ١٩٨٦ ، مركز الجهاد والليبى ، قمر الدين محمد فضل الله والاتجاهات الثورية ، مصدر سابق ، ص ٣٣٩ – ٣٤٠ .
٥٧– مجلة الخرطوم ، يونية ١٩٨٢ ، محمد سعيد القدال ، مصدر سابق ص ٢٩ –٣٠ .
٥٨– منشورات المهدية ، منشور من المهدى يوضح فيه حكم استغلال الأرض وأمور

أخرى، بتاريخ ٩ يونية ١٩٨٤ ، ص ١٩٦ – ١٩٨ – خطاب من المهدى يهاجم فيه العلماء المعارضين له ، فى ١ نوفمبر ١٨٨٣ ، ص ٣٢٨ – ٣٢٩ .
– منشورات المهدية – منشور من المهدى إلى الفارين بالغنائم يوضح فيه مغبة الفرار بالغنائم ، فى ٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، ص ٤٠ –٤٣ .
٥٩– عبد القادر محمود ، الطوائف الصوفية ، فى السودان ، ص ١٢٨ .
٦٠– مجلة الخرطوم ، ٢ يونية ١٩٨٦ ، محمد سعيد القدال ، الرؤيا .. مصدر سابق ، ص ٢٢ ، ٢٩ .
٦١– نفس المكان .
٦٢– مجلة البحوث التاريخية ، ٢ يونية ١٩٨٦ ، مركز الجهاد الليبى طرابلس ، قمر الدين محمد فضل الله ، الاتجاهات الثورية ص ٣٣٨ – ٣٣٩ .
٦٣ – محمد إبراهيم أبو سليم ، الحركة الفكرية فى المهدية ، ص ١ .
٦٤ – مجلة الخرطوم ، يونية ١٩٨٦ ، محمد سعيد القدال ، الرؤيا والثورة ، ص ٢٦ – ٢٧.
٦٥ – أطلق البعض على الثورة المهدية اسم الحركة ، وسواء وصفت بأنها حركة أو غيره إلا أنها فى الواقع ثورة بجميع المعانى ، لأنها اتصفت بالعمومية والشعبية لأنها كانت ذات أيديولوجية ثورية دينية وقبلتها وتجاوبت معها معظم عشائر وقبائل وجموع المجتمع السودانى ، ولأنها أدت إلى تغيرات كلية فى بنية المجتمع السودانى اقتصاديا واجتماعيا وبالتالى سياسيا.
٦٦ – منشورات المهدية ، منشور من المهدى إلى الفارين بالغنائم يوضح فيه مغبة الفرار بالغنائم ، فى ٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، ص ٤٠–٤٣ .
– مجلة الخرطوم ، يونيه ، ١٩٨٢ ، محمد سعيد القدال ، مصدر سابق ، ص ٢٢ .
٦٧ – يذكر ب . م . هولت ضمكن أسباب الثورة المهدية فرض الضرائب الباهظة ، واستخدام العنف فى الإدارة المصرية ، ومنع تجارة العبيد ، واستخدام العنصر التركى فى الوظائف الكبرى فى السودان ، إلا أنه تجاهل عن عمد واحدا من أهم الأسباب وهو وجود العنصر الأوربى على نطاق واسع فى الوظائف الإدارية العليا والأعمال الهامة فى السودان . هولت ، مرجع سابق ، ص ٣٤ – ٣٥ .
٦٨ – هو عثمان ابن محمد بن عثمان بن صالح المعروف بـ(عثمان دان فودى) وينتسب إلى شعب الفلان الذين خرجوا من موطنهم الأصلى فى " فوتاتورو " ببلاد السنغال فى القرن ١٣م ، واستقرت أسرته فى بلاد الهوسا ، وقد ولد فى ١٧٥٤ لأب كان يعمل فقيها، ونشأ عثمان فى بيئة دينية ، وعندما قام بدعوته امتدت حركات جهاده إلى السنغال والنيجر وبلاد الهوسا فى نيجيريا .
– مصطفى محمد مسعد ، الإسلام وحركات الفلان الإصلاحية فى غرب أفريقيا ، مجلة أم درمان الإسلامية العدد الأول ، ١٩٦٨ ، ص ١٢١–١٢٦ .
٦٩– عبد الودود شلبى ، مرجع سابق ، ص ١٤ .
٧٠– راشد البراوى ، مجموعة الوثائق السياسية ، المركز الدولى لمصر والسودان وقناة السويس ، النهضة المصرية ، ١٩٥٢ الجزء الأول ص ٩٠ –٩١ .
٧١– إبراهيم أحمد العدوى ، يقظة السودان ، الأنجلو المصرية ، ط٢ لقاهرة ١٩٧٩ ،

ص٤٨ –٥٠ .
٧٢ – محمد فؤاد شكرى ، مصر والسيادة على السودان ص ٢٦٠ .
٧٣– محمد فؤاد شكرى ، مصر والسيادة على السودان ، ص ٢٤٨ .
٧٤ – شوقى الجمل ، سياسة مصر فى البحر الحمر فى النصف الثانى من القـــرن التاســع عشر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٨٠ –٨١ .
٧٥ – السيد فليفل ، القوى الخارجية والاتجاهات الإقليمية فى السودان (دراسة تاريخيـــة) مركز الحضارة العربية والإعلام ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ١١–١٣ .
٧٦ – عمر طوسون باشا ، المسألة السودانية ، مطبعـــة المســتقبل الإســكندرية ، ١٩٣٦ ، ص١٦ .
٧٧– محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل ن ص ٢٤٥ – ٢٤٦.
٧٨ – تقرير حاكم عام السودان ... سنة ٣٩ –١٩٤١ . صـــلاح الديـــن علـــى الشـــامى ، المواصلات والتطور الاقتصادى فى السودان ، ص٧٨ ، ٧٩ ، ١١٩ــــ١٢٨
٧٩ – السيد فليفل ، مرجع سابق ، ص ٢١ .
٨٠ – عبد الودود شلبى ، مرجع سابق ، ص ١٦١ –١٦٧ .
٨١ – مجلة الخرطوم ، يونيه ، ١٩٨٢ ، محمد سعيد القـــدال ، الرؤيـــا مصـــدر ســـابق ، ص ٢٠ – ٢١ .

٨٢ – ضرار صالح ضرار ، تاريخ السودان الحديث ، الدار الســـودانية الخرطـــوم ١٩٧٥، ص ١١٢ – ١١٤
٨٣ – نفس المكان .
٨٤ – السيد فليفل ، مرجع سابق ، ص ١٢ – ١٣ .
– عبد الودود شلبى ، مرجع سابق ، ص ٢٣١ – ٢٤٠ .
٨٥ –السيد فليفل ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .
٨٦ – عمر طوسون ، المسألة السودانية ، ص ٢٧ – ٢٩.
٨٧– محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل ، ص ١٣٢ – ١٣٣.
٨٨ – الشاطر بصيلى : مرجع سابق ، ص ١٩٠ – ١٩٢ .
٨٩– محمد ابراهيم نقد ، علاقات الرق فـــى المجتمـــع الســـودانى ، النشـــأة – الســـمات – الاضمحلال (توثيق وتعليق) دار الثقافة الجديدة ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٩٥، ص ٨٩.
٩٠ – محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل ، ص ٢٥١ .
٩١ – سيد فلفل ، مرجع سابق ، ص ١٣.
٩٢ – نص والوثيقة ، دفتر رقم ١٩٤٦ أوامر عربى ، ص ٦٥ رقـــم ٦ وثيقـــة رقـــم ٢٢ ، الوثائق الملحقة بكتاب جميل عبيد ، المديرية الاستوائية ، ص ٣٦٠ .
٩٣ – شكرى ، مصر والسودان ، تاريخ وحدة .... ، ص ١٣٣ – ١٣٥ .
٩٤ – على إبراهيم عبده ، مصر وإفريقيا فى العصر الحديث ، ص ٤٢ .
٩٥– عز الدين إسماعيل ، الزبير باشا ودوره فى السودان فى عصر الحكم المصرى ، تاريخ المصريين(١١٣) الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٨ ، ص ١٤٤–١٦٨.

٩٦- نص الاتفاقية المعقودة بين مصر وبريطانيا بشأن تجارة الرقيق فى ٤ أغسطس١٩٧٧، ملاحق مجموعة الوثائق السياسية ، الجزء الأول لمصر والسودان وقناة السويس ، راشد البراوى ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ٩٧ – ١٠٣ .
٩٧ – محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان ، ص ٢٤٨ .
٩٨- جميل عبيد ، المديرية الاستوائية ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، بالقاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٢٠٩
٩٩ – الشاطر بصيلى ، مرجع سابق ، ص ١٩٠ – ١٩١ ، ص ١٦٤ .
١٠٠ – نفس المرجع .
١٠١ – محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان ، ص ٥٢ – ٥٣ .
١٠٢ – جميل عبيد ، مرجع سابق ، ص ٣٨٨ .
١٠٣ – ب . م . هولت ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .
– الشاطر بصيلى ، مرجع سابق ، ص ١٦٤ – ١٦٥
١٠٤ – شكرى ، مرجع سابق ، ص ٢٥٩ .
١٠٥ – نفس المرجع ، ص ٢٥٦ – ٢٥٧
– مقال لمحفوظ عبد الرحمن ، أفندينا فى المنفى (إسماعيل) الحاكم الذى أفقر البلاد ، مجلة الهلال ، عدد مايو ٢٠٠١ ، ص ٤٦ –٤٩ .
١٠٦ – شكرى ، مصر والسودان ، ص ٢٥٨ – ٢٥٩ ، ٢٤٨ .
١٠٧ – حمدنا الله مصطفى حسن : التطور الاقتصادى والاجتماعى فى السودان ، ١٨٤١ – ١٨٨١ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٢٧٣ ، ٢٨٨ – ٢٩٠ .
١٠٨ – سيد فليفل : مرجع سابق ، ص ١٣ .
١٠٩ – عوض عبد الهادى ، مرجع سابق ، ص ٣١ – ٣٢ .
١١٠- منشورات المهدية ، منشور من المهدى إلى الفارين بالغنائم ، مؤرخ بـ ٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، ص ٤١ – ٤٣ .
– الشاطر بصيلى ، ص ١٦٤ ، ١٦٩ . إبراهيم فوزى ، السودان بين يدى غوردون وكتشنر ، مرجع سابق، ص ٣٩٦ – ٣٩٨ .
١١١ – هولت ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .
١١٢- منشورات المهدية ، منشور من المهدى إلى الفارين بالغنائم يوضح فيه مغبة الفرار بالغنائم ، مؤرخ بـ ٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، ص ٤١ – ٤٣ .
١١٣ – عبد الودود ، مرجع سابق ، ص ١٨٩ .
١١٤ – إسماعيل كما تصوره الوثائق ، جورج جندى ، وجاك تاجر ، بمناسبة مرور ٥٠ عاما على وفاة الخديو اسماعيل ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٤٧ .
١١٥ – زكى البحيرى ، جهود مصر الكشفية فى القارة الإفريقية ، من عصر محمد على إلى عصر إسماعيل ١٨٦٣ – ١٨٧٩ ، كتاب تحت النشر ، ص٢٢– ٢٣، ص٥٤– ٧٤.
١١٦- عز الدين إسماعيل ، الزبير باشا ودروه فى السودان فى عصر الحكم المصرى ، ص١٧٥ – ١٨٠
– وشكرى ، مصر والسودان ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .

- والشاطر البصيلى ، مرجع سابق ، ص ١٤٦ .
١١٧ - وثائق من دفتر ٥٠ تلغرافات عربى شفرة صـــ ٤٧ رقم ٢٧٢ فى ٢٧ يوليـو ١٨٧٨ وثائق ملحقة بكتاب جميل عبيد ، المديرية الاستوائية ، ص ٤٧٣ .
١١٨ - كان يطلق على العبيد والعاج ، وحتى تجار الشيل الدناقلة نظرا لأن معظم من عمـــل فى هذا النوع من التجارة كان منهم .
١١٩- دفتر ٥٠ وارد تلغرافات عربى شفرة ، ص ٣٧ ، رقم ٢٠٤ فى ١٤ يوليو ١٨٧٨ من غوردون باشا ، والوثائق الملحقة بكتاب جميل عبيد ، نفس المصدر ، ص٤٧٢-٤٧٣ .
١٢٠- شكرى ، مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل ، ص ١٣٦ - ١٣٧، والـبراوى، مرجع سابق ، ص ٨٧ .
١٢١ - اسماعيل كما تصوره الوثائق ، مصدر سابق ، ص ٢٥٢ .
١٢٢ - شوقى الجمل ، سياسة مصر فى البحر الأحمر ، ص ٨١ .
123 -Bernard M . Allen , Gordon and the Sudan , Macmillan and Co., Limited , London , 1931 , pp . 145 – 149 .
124 - Ibid., pp . 148 – 152 .
١٢٥- دفتر ٥٠ عابدين تلغرافات عربى شفرة ، ص ٣٢ ، رقم ١٨٢ ، من غوردون إلـــى القاهرة فى ٧ يوليو ١٨٧٨ ، الوثائق الملحقة بكتاب جميل عبيد ، المديرية الاســـتوائية، ص ٤٨٠ .
١٢٦ - الشاطر ، مرجع سابق ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .
١٢٧ - نفس المرجع ، ص ١٦٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٢ .
١٢٨ - عبد الودود شلبى ، مرجع سابق ، ص ١٦٦ .
١٢٩ - شكرى ، مصر والسيادة على السودان ، ص ٥٦ - ٥٧ ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .
130 - Major General sir Francis Wingate , Ten years , Captivity in Mahid's camp , from the Original Manuscripts of father Joseph ohr walder , Sampson Low , Marston & Co . london , P . 160 .
Wongate , Mahdlism and the Egyptian sudan , Macmillan and co . Llondon , 1891 . pp . 70 – 75 .
١٣١ - شكرى ، مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل ، ص ٢٦٨ - ٢٧٢ .
Wingate , Mahdism and Egyptian Sudan , pp . 71 – 78
١٣٢ - الشاطر بصيلى ، ص ١٦٩
١٣٣ - نفسه ، ص ١٧٠ - ١٧١
١٣٤ - عمر طوسون باشا ، المسألة السودانية ، ص ٣٦ - ٣٩
135 - Henry S.L. Alford , and Dennistoun Swird , op . cit ., pp . 9 - 11
١٣٦ - إبراهيم فوزى السودان ، بين يدى غوردون وكتشنر ، ص ٢٠٤
١٣٧ - نفسه ، ص ٣٧٦
١٣٨ - شكرى ، مصر والسيادة على السودان ، ص ٧٧ - ٧٨ .
١٣٩ - الشاطر بصيلى ، مرجع سابق ، ص ١٧٤

١٤٠- إبراهيم فوزى ، مصدر سابق ، ص ٢٩٥ – ٢٩٩
١٤١ – شكرى ، مصر والسيادة على السودان ، ص ٥٧ – ٥٩
– والبراوى ، مرجع سابق ، ص ٩٢
١٤٢ – ب. م . هولت ، المهدية فى السودان ، ص ١٠٥ – ١٠٩ .
143 – Henry S .L . Alford and Dennistiun Sword , The Egyptian Sudan , Op. Cit., PP . 11 –16
– الشاطر البصيلى ، مرجع سابق ، ص ١٧٨ – ١٨٠ .
– مكى شبيكة ، السودان والثورة المهدية ، ص ١١٠ .
١٤٤ – نفس المرجع ، ص ١٧٩ – ١٨٠ ، ١٩٤
١٤٥ – الشاطر بصيلى ، ص ١٧٧ – ١٨٠
١٤٦ – منشورات المهدية ، هامش ص ٣١٩ ، ٣٢٠ .
١٤٧- منشورات المهدية ، إنذار من المهدى إلى غوردون باشا بتاريخ ٩ مـــارس ١٨٨٤ ، ص ٣١٩ – ٣٢٧
١٤٨ -إبراهيم فوزى ، ص ٢٦٨ .
– هولت ، المهدية فى السودان ، ص ١٠٥ – ١١٢
١٤٩ – إبراهيم فوزى ، السودان بين يدى غوردون وكتشنر ، ص ٣٩٤ .
١٥٠ – جلال يحيى، مصر الإفريقية والأطماع الاستعمارية فى القرن التاســـع عشـــر، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٤٤٨ .
١٥١- كانت المديرية الاستوائية ضمن المناطق التى بدأ محمد على عملية استكشافها وضمها للإدارة المصرية بعد رحلات سليم قبودان ،واستكمل توسعها والوصول إلـــى حدودهـــا الطبيعية إسماعيل باشا ، وتولى إدارتها صمويل بيكر من ١٨٦٩ – ١٨٧٣ ،وتلاه فـــى إدارتها محمد رؤوف ثم غوردون ، ثم براوت فإبراهيم فوزى وأخيرا الطبيب أمين باشا، وهو ألمانى الأصل اعتنق الإسلام ، وقد تولى حكمدارية جنوب الســـودان مـــن ١٨٧٨ وحتى ١٨٨٩ . راجع عمر طوسون باشا ، تاريخ مديرية خط الاستواء المصريـــة مـــن فتحها حتى ضياعها ، الجزء الأول ، الإسكندرية ١٩٣٧ .
١٥٢ -جلال يحيى ، مرجع سابق، ٤٣٧
153– Journals , Major – Gen . C . G . Gordon , at Kartoum , Appendix U letter from the Mahdi to General Gordon , oct . 1884 , p p . 522 – 525 .
– هولت ، المهدية فى السودان ، ص ١١٨
154- Ibid , 525 – 527
– جلال يحيى ، مرجع سابق ، ص ٤٣٧
155– The Journals , Major – Gen . Gordon , A copy of telegram from his Excellency Gordon ¦asha to his Excellency]arratch Ukkah Beg Commandant of OmDurman , 22 , oct , 1884 . pp . 536 – 537
- Henry s . L . Alford and Dennistoun Sword , op . cit ., pp . 11 – 16 .
١٥٦ – نفسه ، ص ٤٥٤ – ٤٥٥

١٥٧ – إبراهيم فوزى ، مصدر سابق ، ص ٣٩٨ .
١٥٨– بعد مقتل غوردون غيرت الصحافة البريطانية موقفها من السودان نـــهائيا ، فشـــنت هجوما على المهدى وأهل السودان ، واعتبرتهم " عصاة " ومتعصبين مع أن الحكومـــة البريطانية كانت تصرح على الملأ ومن داخل البرلمان أيضا سنة ١٨٨٤ بأن السودانيين بقيادة المهدى يقاتلون فى سبيل استقلالهم وأنه لابد أن يحصلوا على حريتهم ، والتنـاقض واضح هنا بين الموقفين ، على إبراهيم عبده ، مصر وإفريقية فى العصر الحديـث ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٤٤ – ٤٦ .
١٥٩ – على إبراهيم عبده ، نفس المكان ، وإبراهيم فوزى ، ص ٤٠١ – ٤٠٢ .
– جاء فى كتاب " السودان بين يدى غوردون وكتشنر " حول مقتل غوردون " أنه لما دخل محمد نوبارى المدينة قصد بكل مقاتليه سراى غوردون وكانوا زهاء مائة ألف مقـــاتل ، فأطل غوردون من النافذة (بقصر الحاكم العام) فقال لحراسه لا تبدوا معارضة لأى أحد يريد الوصول إلى ... فدخل عليه محمد نوبارى وجماعة من المقاتلين فوجـــوده جالســـا على كرسيه ممسكا بيده منديل أبيض ، فابتدره أحد الدراويش وقال له أين أموالـــك يـــا غوردون يا كافر ، فتبسم ضاحكا وقال له أين محمد أحمد يقصد المهدى فابتدره الرجـــل بطعنة فى صدره خر منها صريعا على الأرض يتخبط فى دمه.
160 – Blunt , Wilfrid Scawen , Gordon at Kartoum , Being a Personal Narrative of Events , Stephen Swift and co . Ltd . London .
١٦١ – عبد الودود شلبى ، مرجع سابق ، ص ٣٩ – ١٩٥ .
162 –Major General Sir Francis Wingate , Ten years , Captivty in Mahid's Camp, Fifteenth Edition , london , pp . 157 – 160
١٦٣ – شوقى الجمل ، تاريخ كشف قارة إفريقيا واستعمارها ، الأنجلو المصرية ، القـاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٦٢٧ – ٦٣٠ .
١٦٤ – عمر طوسون باشا ، مديرية خط الاستواء المصرية من فتحها حتى ضياعها ، الجزء الثالث ، ص ١٨٨ – ٢١٩ .
١٦٥ – شوقى الجمل ، تاريخ كشف قارة إفريقيا واستعمارها ، ص ٦٢٧ – ٦٣٠ .
١٦٦ – فتحى غيث ، الإسلام والحبشة عبر التاريخ ، ص ٢٣٥ – ٢٣٧ .
١٦٧– منشورات المهدية ، منشور من الخليفة عبد الله التعايشى عن وفاة المـــهدى فـــى ٢٢ يوليو ١٨٨٥ ، ص ٨١ – ٨٣ .
168 – Harold Mac Michael , The Sudan, Ernest Benn Limited London , 1954 , p . 53 – 54
– عبد الله حسين ، السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية ، الجـــزء الثـــانى ، المطبعة الرحمانية بمصر ، ١٩٣٥ ، ص ٢٧ – ٣١ .
١٦٩ – يونان لبيب رزق ، السودان فى عهد الحكم الثنائى ١٨٩٩ – ١٩٢٤ ، معهد البحـوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ١٧ – ٣٨ .
١٧٠ – نفس المرجع ، ص ١٦١ – ١٩٢
– زكى البحيرى ، السودان تحت الحكم الانجليزى ، ماجستير غير منشورة ، كليـــة الآداب

جامعة عين شمس ، ١٩٨٢ ، ص ٣٧٧ – ٣٨٦ .
١٧١ – نفس المرجع ، ص ٤٥ – ٤٧ .
172 – Hassan Ahmed Ibrahim , The Development of Economic and political Neo – Mahdism in the Sudan 1920 – 1935 , (0 – 14)
١٧٣– عبد الودود شلبى ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ .
١٧٤ – ب . م . هولت ، مرجع سابق ، ص ٣٠ .
– مجلة الخرطوم، عدد يونيه ١٩٨٢، الرؤيا... الثورة، مصدر سابق، ص٣٥ –٣٦.
١٧٥ – جلال يحيى ، مرجع سابق ، ص ٣٤٤ .
١٧٦ – مجلة الخرطوم ، عدد يونيه ١٩٨٢ ، مصدر سابق ، ص ٣٤ – ٣٥ .
١٧٧ – جلال يحيى ، مرجع سابق ، ص ٣٤٤ .
١٧٨ – عبد الودود شلبى ، مرجع سابق ، ص ١٥
١٧٩– منشورات المهدية ، منشور من المهدى إلى الفارين بالغنائم يوضح فيه مغبة الفـــرار منشور صادر فى ٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، أى بعد ٢٤ شوال ١٢٩٩ . ص ٤٠ – ٤٣ .
١٨٠– نفس المصدر
١٨١ – ضرار صالح ضرار ، مرجع سابق ، ص ١٥٤
١٨٢ – مجلة الخرطوم ، عدد يونيه ١٩٨٢ ، مصدر سابق ، ص ٣٥ – ٣٩ .
١٨٣ – الشاطر بصيلى عبد الجليل ، مرجع سابق ، ص ٩١ – ٩٢ .
١٨٤– عبد القادر محمود ، الطوائف الصوفية ، ص ١٦٠ – ١٦١ .
١٨٥ – عبد الودود شلبى ، مرجع سابق ، ص ١٢ .
١٨٦ – منشورات المهدية ، مقدمة بيد المحقق محمد ابراهيم أبو سليم ، ص د .
١٨٧– إلا أن الخليفة عبد الله التعايشى قد أصر على تهجير قبائل سودانية مـــن غـــرب السودان مثل التعايشة والرزيقات إلى أم درمان بينما حرك قبائل أخرى من حـــول العاصمة مما كان وبالا على المهدية وأفضى إلى حروب قبلية أضـــرت بالنظـــام ، محمد إبراهيم أبو سليم ، فى الشخصية السودانية ، دار جامعة الخرطوم ، ١٩٧٩ ، ص ٥١ .
١٨٨– عبد الودود شلبى ، مرجع سابق ، ص ١٦ – ١٥٨
١٨٩ – ضرار صالح ، مرجع سابق ، ص ١٦٣ .
١٩٠ – مجلة البحوث التاريخية ، عدد ٢ يونيه ١٩٨٦ ، مركز الجهاد الليبى ، مصـــدر سابق ، ص ٣٤٤ .
١٩١ – منشورات المهدية ، خطاب المهدى يهاجم فيه العلماء المعارضين له (هـــامش فى ١ نوفمبر ١٨٨٣، المنشورات ص ٣٢٨ – ٣٢٩)
١٩٢– منشورات المهدية ، نفس المكان .
– مجلة الخرطوم ، مصدر سابق ، ص ١٦ – ١٩
– جلال يحيى ، ص ٥٠
١٩٣ – محمود عبد القادر ، مرجع سابق ، ص ١٦٠ – ١٦١ .
١٩٤ – وردت كلمات فى منشورات المهدى بها ملاحظات فى اللغة والإمـــلاء منـــها كلمـــة

يومن، والمفروض أن تكون يؤمن .

١٩٥ – منشورات المهدية ، إنذار من المهدى إلى محمد الأمين الضرير ردا على خطاب الضرير شيخ العلماء (وهو من الذين أنكروا المهدية ووقفوا ضدها ، وقد تم أسره بعد سقوط الخرطوم ، ومات بعد قليل من هذا الحدث) وتاريخ الإنذار ١٥ يوليو ١٨٨٢ ، المنشورات ص ٣٣٠ – ٣٣٢ .

١٩٦– شكرى ، مصر والسودان ، ص ٢٦٦ .

- The Journals , Major – Gen , C , G , Gordon , at Khartoum , Reach and Co . London , 1885 , p . 539 – 545 .

Major F .R . Wingate , Mahdismand Egyptian Sudan , op . cit ., 1891 , p . 66 – 71

١٩٧– عبد القادر محمود ، مرجع سابق ، ص ١٥٨ .

١٩٨ – مجلة الخرطوم ، عدد يونيه ١٩٨٢ ، مصدر سابق ، ص ٢٩ – ٣٠ .

١٩٩ – منشورات المهدية ، منشور من المهدى فى حدود (الشرع الإسلامى) بتاريخ ٨ مايو ١٨٨٣ ، قبل رجب سنة ١٣٠٠ ، المنشورات ص ١٨٥ ، ١٨٧ .

٢٠٠ – منشورات المهدية ، رسالة من المهدى يوضح فيها أسس البيعة ويعدد جوانبها داعيا إلى التوكل على الله والرغبة فى الاعتماد عليه وعدم إخفاء الغنائم والزهد عن الدنيا، فى ٧ ديسمبر ١٨٨٣ ، ص ٢٨ .

٢٠١ – منشورات المهدية، منشور من المهدى ينصح فيه أتباعه بالتقوى والطاعة والعمل الصالح ونبذ المفاسد، بتاريخ ١ نوفمبر ١٨٨٣، المنشورات، ص٣٦–٣٩.

٢٠٢ – منشورات المهدية ، منشور من الخليفة عبد الله فى النظر فى دعاوى أهل المناطق النيلية ، بتاريخ ٢٩ سبتمبر ١٨٨٥ ، المنشورات ، ص ١٨٨ – ١٨٩ .

٢٠٣ – منشورات المهدية ، منشور موجه من المهدى بخصوص العملات وتداولها بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٨٨٤ ، المنشورات ص ٢٧٥ .

٢٠٤ – منشورات المهدية ، منشور من الخليفة عبد الله بخصوص العملة موجه إلى جماعة المسلمين ، بتاريخ ٩ ابريل ١٨٨٦ ، المنشورات ص ٢٧٦ – ٢٧٧ .

٢٠٥ – منشورات المهدية ، منشور من المهدى فى الآداب الاجتماعية إلى إخوانه المسلمين بتاريخ ٢ مارس ١٨٨٤ ، المنشورات ص ٢٨٣ – ٢٨٦ .

٢٠٦ – المنشورات نفس المكان .

٢٠٧ – منشورات المهدية ، المهدى يعلق على حديث (من الأحاديث) ، تخلو المصادر من تاريخ صدور ونشر هذا المنشور ، المنشورات ص ٣٤٩ – ٣٥٠ .

٢٠٨ –المنشورات ، منشور من المهدى يمنع فيه الغلول ويحذر منه وهو يطلب من أتباعه تسليم غنائم واقعة هكس ، بتاريخ ٦ نوفمبر ١٨٨٦ ، ص ٢٥٤ – ٢٥٥ .

٢٠٩ –المنشورات ، نفس المكان .

٢١٠ – المنشورات ، نفس المصدر ، ص ١٧١ – ١٨٠ .

٢١١ – منشورات المهدية ، منشور يتعرض فيه المهدى إلى الطاعة للخلفاء والأمراء وجهاز الجيش ، بتاريخ ١٠ أكتوبر ١٨٨٤ ، ص ١٧١ – ١٨٠ .

٢١٢ – منشورات المهدية ، منشور من الخليفة عبد الله التعايشى عن فضل الجهاد يحث به الذين أرسلهم لفتح مصر ، بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٨٨٥ ، ص ١٢٩ – ١٣٥.

٢١٣- منشورات المهدية ، منشور من المهدى ينصح فيه أتباعه بالتقوى والطاعة والعمل الصالح ، ونبذ المفاسد ، فى ١ نوفمبر ١٨٨٣ ، ص ٣٦ – ٣٩ .

٢١٤- لائحة ترتيب ونظام المحاكم الشرعية السودانية ، ٣١ أغسطس ١٩١٥ ، مطبعة السودان بالخرطوم ١٩١٥ ، ص ١ – ٧

٢١٥- ورد هذا الأسلوب فى النص .

٢١٦ – منشورات المهدية ،منشور من المهدى يوضح فيه حكم استغلال الأرض ، وبعض أمور تتصل بالزواج، صدر فى ٩ يونيه ١٨٨٤ ، ص ١٩٦ – ١٩٨ وكلمة المومنين هكذا وردت فى النص وصحتها المؤمنين ، وينطبق هذا على كلمة المومن ، ومومن .

٢١٧ – منشورات المهدية ، المهدى يكلف أحد أقاربه بنظارة جنائن الخرطوم تحت إدارة بيت المال ، صدر المنشور فى ٢٧ يناير ١٨٨٥ ، ص ٢٧١ .

٢١٨ – منشورات المهدية ، منشور المهدى يأمر بتأميم المشارع (جمع مشروع وهو مرفأ للسفن النيلية) ، ٧ يونيه ١٨٨٥ ، ص ٢٦٧ – ٢٦٨ .

٢١٩ – منشورات المهدية ، منشور من المهدى بإخلاء المواضيع التى تنتج للمصالح العامة لبيت المال كالدكاكين والطواحين ، ٢٧ مارس ١٨٨٥ ، ص ٢٦ .

٢٢٠ – منشورات المهدية ، منشور من المهدى يوضح فيه حكم استغلال الأرض ، وبعض أمور تتصل بالزواج .... ، صدر فى ٩ يونيه ١٨٨٤ ، ص ١٩٧ .

٢٢١- مجلة البحوث التاريخية، مركز الجهاد الليبى، العدد(٢) يوليو ١٩٨٦، قمرالدين محمد فضل الله، الاتجاهات الثورية فى فكر محمد أحمد المهدى، ص٣٤٦-٣٤٧.

٢٢٢ – منشورات المهدية ، منشورات عن الغنائم وخطرها على المسلمين ، ٢٢ نوفمبر ٨٨٤ ، ص ٢٤٧ – ٢٥٠ .